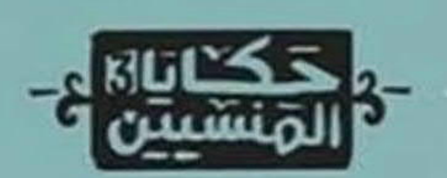




حكاية الأشبوني

إبراهيم أحمد عيسى

رواية

OPIA
LISHING
OUSE

1

الغريب

«أوقفوا ذلك اللص»

اختلطت الكلمات بصيحات الاستهجان من المارة، وقد باءت محاولات الإمساك بذلك الفتى اليانع بالفشل، حالة من الفوضى عمت السوق إثر ملاحقة الجند للشاب الذي استطاع أن يندس بين الناس ليذوب بين الجموع، حث الخطى متلفتًا رغم الزحام الخانق، تلقف إحداهن قبل أن تسقط إثر اصطدامه بها، شهقت فالتوت الأعناق نحوهما وبدا أن من يلاحقوه فطنوا للأمر، لم يبال بالعيون من حوله ومال عليها هامسًا:

- عذراً عزيزتي لم أكن أقصد ذلك.

قالها وهو يقبض على معصمها جاذبا إياها لدرب ضيق، بعد أن اعتمر قبعة كان قد انتشلها من أحد المارة حين وَلَجَ إلى السوق، اختفى داخل الزقاق، ليجد أنه ما يزال ممسكا بيد تلك الجميلة التي تسير خلفه مسلمة يدها إلى قبضته، عيناها تحمل دهشة، فاغرة فمها، أفلت يدها متلعثمًا، وكاد أن يقول لها شيئًا حين تناهى إلى مسامعه صوت صيحات الجند وهم يحثون المارة على إفساح الطريق، فما كان منه إلا أن دفعها

برفق ليلتصق ظهرها بالحائط، عيناها المكتحلة كانت تفيض بالدهشة والخوف، لا تدري ما عليها أن تفعل قبل أن تفكر بالصراخ تفاجأت به يلتصق بها، أشاحت بوجهها مع اقتراب وجهه منها هامسًا «لا تخافي»، تظاهر بتقبيلها بينما عيناه ترصد مرور الجند بقبعاتهم ذات الريش الأحمر، وملابسهم الضيقة المحكومة بأحزمة جلدية سوداء تزيد في الخناق على سراويلهم البيضاء الملتصقة على سيقانهم، ما إن تأكد من مرورهم حتى تركها متراجعًا وهي ما تزال مغمضة تنتظر قبلته التي لم تأتِ، أفاقت على صوته وهو يركض مبتعدًا:

- وَددتُ أَنْ يَطول الوقت ولكن كما ترين.. عليَّ الرحيل.

تابعته بخيبة أمل حتى انصهر في زحام في الشارع المقابل.. تجول بالسوق يحاور الباعة كلما لمح أصحاب الريش الأحمر، يتفحص البضائع سائلًا عن الأسعار، الخروج من السوق المكتظ بالناس والروائح كان أشبه بحلم يصعب تحقيقه، أيام قليلة ويحل عيد الميلاد والناس لا تكف عن الشراء، الباعة ينادون على بضائعهم، وأجراس كاتدرائية سانت ماريا تُقرع، صخب هادر كان عليه أن يتجاوزه، لطالما كره الضوضاء والتواجد بين الحشود ولكنه مرغم على ذلك، كان قد اقترب من مخرج السوق حين وجد الجند وقد وقفوا يسدون عليه الطريق، دار بعيناه في المكان بحثًا عن

سبيل للخروج، بضع خطوات فقط تفصله عن حانوت حدادة ملاصق لسور المدينة القديم، كان الحداد منشغلًا بتركيب حدوة لجَوَاد أندلسي، كأنما نُحت جسده من صخور شانت ياقب الرمادية، أخذ يراقب المكان لبرهة، نظر إلى الحانوت، ذلك هو المخرج الوحيد أمامه فالباب الآخر للمحل يؤدي إلى خارج السوق، انْتَظر الفتى لدقائق حتى تأكد من هدوء المكان وابتعاد الحداد عن الحصان الفَتيّ، سار إليه بخطوات واثقة وهو يقضم من تفاحة سلبها من أحد المارة بخفة، تلفت حوله ليتأكد من خلو المكان؛ ثم تقدم نحو الجَوَاد الذي انتصبت أُذُنَاه في توتر، وضع التفاحة على راحة يده وقدمها له، داعبتها الشفاه السوداء للجواد قبل أن يقبض على الثمرة ويلوكها بنهم، والفتى يداعب خصلاته هامسًا:

- لا تخف يا صديقي أنت سبيلي للخروج من هنا.. أنا مالكك الجديد وأدعى سانشو... سانشو الأشبوني.

لم يكد ينهي كلماته حتى جاء صوت الحداد من خلفه، وهو يقول:

- أنتَ.. ماذا تفعل؟!

لم ينتظر سانشو حتى يكمل العجوز كلماته، بل قفز إلى صهوة الجواد صائحًا، فما كان من الأخير إلا أن وقف على قائمتيه الخلفيتين مطلقًا صهيلًا قويًا لينطلق بعدها في

سرعة، وقع حوافره على الأرض منحت سانشو زفرة من الحرية، بعد فترة من السير بشوارع المدينة توقف على جانب الطريق حيث احتشد الناس، يمر موكب -أوتو دا في- يتقدمه الرُهبان المتشحون بملابس حمراء وسوداء وبيضاء، وقد غطت وجوههم قراطيس طويلة لا تظهر سوى أعينهم، حاملين الصلبان الذهبية مرددين آيات التكفير عن الخطيئة، ومن خلفهم كان يسير مجموعة من المدانين، بالتأكيد اتهموا بالهرطقة والرِّدَّة عن تعاليم الكاثوليكية، كانوا حفاة بائسين تكسوهم أسمال بالية من خيش، وجوههم شاحبة، وعيونهم تستجدي رحمة لملمت أغراضها ورحلت منذ زمن بعيد، كان الأمر كافِيا ليثير حنقه، فكر في مهاجمة موكب الإيمان هذا ولكنه فكر أن الأمر لن يزداد سوى تعقيدًا، لم يجد بُدًّا من الرحيل، أرخى لجام جَوَاده، وحثه على المضي قدمًا جارًا وراءه الضيق والألم، كانت النوارس تحوم في الأفق، تحت غيوم رمادية كئيبة أثارت بداخله ذكريات عدة لا تنفك عن مطاردته، وكزة أُخرى زادت من سرعة الحصان ليسلك طريقه إلى خارج المدينة ذات الأسوار العتيقة، وأجراس الكاتدرائية ما زالت تعمر الخواء من خلفه بينما يعبر البوابة العظيمة خارجًا من لشبونه.

***

سانشو الإشبوني.. اسم أحبه رغم أنه فُرض عليه حتى نسيّ اسمه القديم، ولكنه يتذكر من هو من كثرة مناداته بالموريسكي، وسمٌ حمل له كثير من المتاعب، وهُوية لم تمحَ من تفاصيل وجهه العربي، كلماته العربية ليست قوية بشكل كافٍ لكنه يحب الحديث بها، وجدها أقرب لقلبه من اللاتينية ولكنتيها القشتالية والبرتغالية اللتان لم يفارقاه خلال عُمر عاش معظمه في البحر، يمسح أرضيات السفن الزلقة بعد أن كان مُجدّفا؛ اضطر في بعض الأحيان للعمل كحمال لصنوف شتى من البضائع، تدرج كثيرًا قبل أن يصبح مساعدًا للقبطان ألفارو دي سيلفا، رجل طيب يحب البحر مثله، وقائد سفينة من أعظم سفن الإمبراطورية البرتغالية، جاب معه كثيرا من مناطق فردوس العالم الجديد، ورغم كل ما حظي به من مكانة لدى طاقم السفينة إلا أنه كان وحيدًا، خمسة وعشرون عامًا كانت رحلة طويلة في حياة الأسر الأبدية، نعم أسير سفينة هي الأخرى كانت أسيرة زرقة المحيط الشاسع، تمده رائحة المحيط المشبعة بالملح بذكريات تكاد تتلاشى، تتأرجح بوجدانه كلما تمايلت السفينة في رقصتها مع الموج، حياة المغامرة والتعلق بالصواري والحبال كانت تمد روحه بكثير من المتعة، عشق كونه مغامرًا، وأراد أن يكون له قصة خاصة به كحكايات كولومبس الذي أبحر نحو المجهول، وعاد محملًا بكنوز لا مثيل لها، ذلك الدرب الذي سلكه جلُّ

البرتغاليين والإسبان، البحث عن عالم جديد والإبحار إلى الفردوس، مغامرات كورتيز وخوضه الغابات الكثيفة في بلاد الأزتك والإنكا، وفتوحات البوكيرك في بحر العرب والهند ذلك الرجل الذي جعل من لشبونة مركزا لتجارة التوابل، كل تلك القصص كانت كافية لملء قلبه بالحماس لبدء مغامرته الخاصة، لعلَّ الناس تحكي سيرته يومًا كبحار موريسكي وجد ضالته في عالم جديد لم يكتشفه أحد من قبل، ولكن العبيد والموريسكيين لن يذكرهم التاريخ كفاتحين وهذا ما علمه حين وطأت قدماه تلك الأرض، عرف أنها ليست الجنة الموعودة كما أشيع، هل الجنة بحاجة لديوان تفتيش؟! سؤال راوده كثيرًا كلما رأى ما يفعله القساوسة والرهبان والقادة، كانت وجوه أهل تلك البلاد ثمارا لأشجار البؤس والخوف، الجنة لا يُنكّل فيها بأحد، ولا يجبر فيها أحد على فعل شيء لا يحبه، أوليس للإنسان أن يأكل ما يريد ويرتدي ما يحلو له؟ أن يعبد ما يشاء ويعتقد بما يشاء؟ ولكن الأمر هنا أشبه بسجن كبير رغم كل تلك الجبال والغابات، مدن بأسوار بدائية من الخشب والحجارة، وأبنية كبيرة يُستعبد الناس لبنائها باسم الرب، كان كل ذلك كافيا ليكره اليابسة وقد وجد في البحر ملاذه، يأوي في الليل إلى قمرته وفي النهار ينشغل بتوضيب السفينة والعمل مع الطاقم، وبين هذا وذاك يقلب وجهه في أفق يحمل وجوهًا تتبدل مع لون

السماء، بعضها يحمل صفاء بلون الصباح الوردي، وأخرى تحمل شجن الغروب وحزن شمسه الحمراء، تأفل فيهيم في سواد الليالي الظلماء، يحصي نجوما أسماها بأسماء مدن وقرى الموريسكيين الذي هو منهم ولا يعرف الكثير عنهم.. غريب وحيد كطائر مهاجر فوق المحيط الشاسع إن انهكه التعب يترك المياه الداكنة تحمله دون أن يخشى وحوش البحر.

تغير كل شيء يوم قابل الرجل، ضيق العينين، ذو الأنف الأقني الدقيق والشارب الرفيع الأسود كعنفقته المستقرة أسفل شفاهه، بدى وكأنه أحد السكان الأصليين للعالم الجديد، لكنه مختلف رغم بزته العسكرية الإسبانية وشعره المهذب القصير، نحيل وملامحه مختلفة، وكان من العجيب أنه يحظى بمكانة كبيرة كما بدى، ضابط قشتالي مرموق يتعامل معه الجميع بود واحترام على عكس ما يعامل به أهل تلك البلاد البعيدة، لم يفلح في جمح فضوله، فصار الرجل محط أنظاره ومراقبته الدائمة، يقضي الوقت في قمرته برفقة محبرته وأوراقه وريشة لا ينضب حبرها ولا يخرج إلا مساءً يجلس في مقدمة السفينة يتأمَّل السماء ونجومها، ويبقى على تلك الحالة حتى يأتي الصباح، كان سانشو يحسبه ساحرًا يخافه البحر ويحجب الموج حين يراه، الإبحار يظل هادئًا في وجوده على سطح السفينة،

والشمس تبحث عن غيم تستتر به فلا تؤذيه بحرارتها، سأل عنه الربان دي سيلفا! فقص عليه الأخير أمر ذلك الغريب...

- إنه «غارسيلاسو دي لافيجا» ويطلقون عليه إنكا، شخص هجين يحب البرابرة الهمجيين أكثر منا، لا أحبه ولا أعرف كيف يصبح هذا الرجل ضابطًا عسكريًا، والده كان ضابطا يدعى سيباستيانو غارسيلاسو ويقولون أنه أغرم بأميرة من عائلة إمبراطور الإنكا –أتاوالبا-.. لا أعرف كيف لرجل كاثوليكي أن يتزوج من تلك الهمجية الكافرة، يبدو أنها سحرته، ولكن ليس هناك أسوء من رجل يفعل أي شيء من أجل الحب، يطلق العنان لجموح عقله وقلبه ويبدو أن الحُب أذاب كل تلك الفوارق بينهما، يقول بعض الناس أن الرجل تزوجها متحديًا أوامر الدون بيدرو دي ألفارادو، وجراء ذلك قام الأخير بحرق عدة قرى كما أعدم إخوة الزوجة، لعلها كانت جميلة وأراد أن يحظى بها هو الآخر، أو هو انتقام من شخص لم يحصل سوى على الرؤوس والذهب ولم يحظى بامرأة جميلة كما قالوا... كانت حسناء رغم كونها همجية.

- كل هذا من أجل امرأة؟

- نعم فالغيرة تفعل أكثر من ذلك.. استطاع بيدرو بدهاءه وقسوته أن يُشعل الأمور التي ازدادت تعقيدًا، البنادق والخيل كانا المفتاحان لقهر قوات الإنكا أينما وجدت، وفي

خضم الأحداث قتل أخ الإمبراطور والتهمة التصقت بصاحب العرش، وكانت فرصة مثالية للفاتحين؛ إذ تم أسر «أتاوالبا» إمبراطور الإنكا من قبل الحاكم العام فرانسيسكو بيثارو الذي حاكم الرجل بتهمة قتل أخيه، ومقابل ألا يُعدم افتدى نفسه بغرفة مليئة بالذهب... ولكن بيدرو دي ألفارادو بَخَّ سُمّه في أذن بيثارو فقتل الإمبراطور، وهنا اندلعت الحرب مرة أخرى ولسنوات ظلّ فرانسيسكو بيثارو يدافع عن مدينة كوزكو والتي كان يحاول الإنكا استردادها، في تلك الأثناء ولد ذلك الهجين بعد أن قُتل الحاكم بيثارو.. وكانت ولادته سبب هدنة وسلام داما كثيرا... الهجين ولد لينقذ كوزكو من الدمار، وأصبح الأمر شائعًا أن يتزوج الفاتحون من الأدنى مرتبة، وأقبل الجند والقادة على ذلك الفعل متحججين ببعدهم عن بلادهم ونسائهم اللاتي تركهن في الديار. إنه ذاهب إلى قشتالة موطن والده، وقريبًا سيحظى بشرف أنه من سلالة دي لافيغا التي كانت مقربة من الملكين فرناندو وإيزابيلا، مما سيجعله قريبًا من حفيدهم الملك فيليب الثاني.

شغل ذلك الرجل عقل سانشو طوال الرحلة عبر بحر الظلمات، تلك الحكاية التي سمعها من الربان كانت تفوح بالبغض لكل ما دون الإسبان والبرتغاليين، يرون أنفسهم أوصياء على البشر والأرض، رعاة لخراف الرب الشاردة

ومطهروا البشر من الذنوب والآثام، جعله هذا الأمر يجزم دومًا أن ذلك الإنكا سيتعرض لمساءلة ديوان التفتيش، ربما سيختفي يوما في غياهب السجن، فمظهره يوحي بأنه ساحر ربما أو مهرطق، ويومًا ما سينتهي به المطاف مجرورا في موكب الإيمان ثم محروقًا على صارٍ خشبي.

كأبيه وأمه... رأى سانشو الصغير مشهد الحرق بيعنيه، كان يبكي وأياد غليظة لشياطين ترتدي أغطية رأس مدببة تسحبه بعيدًا، صرخ وانتحب وهم يسحبونه بعيدًا والنيران كجحيم تستلذ بشواء والديه، لم يتوقف عن البكاء لأيام امتنع فيها عن الطعام، أُودع في مقر إرسالية القديس ألفونسوا، كان صغيرًا، ولكنه استوعب ما يحدث أنه بين أيادي قتلة أبويه، ما الذي قد يكون أسوأ من موت أمه وأبيه، تسلل إلى الساحة لرؤية رماد جسديهما بعد أن خمدت النيران، وأُمسِكَ به. عنفوه ونصحوه وحلقوا له رأسه وبعدها حظي باسمه الجديد؛ بعد أن سكبوا على رأسه المياه الباردة، لم ينطق وترك جسده النحيف لهم، دفعوا جسده إلى الماء البارد، كتم أنفاسه طويلًا.. ودَّ أن يموت ولكنهم أخرجوه، جسده الضعيف كان يرتجف بفعل البرودة، غُطِّس في الماء مرة أخرى وصوت الأب ميجيل نفث فيه الروح مرة أخرى:

«اسمك الآن سانشو... باركك الرب يا فتى ورافقتك عناية العذراء».

بعد ذلك اليوم لازمه الاسم ولم تلازمه عناية العذراء، أصبح خادمًا للأب ميجيل لمدة عام، قبل أن ينتقل للخدمة في قصر أحد النبلاء، مُنع من التحدث بالعربية إطلاقا، ولكنه اختلس الكلمات مع بني جلدته من الخدم، صار يأوي إليهم ويحفظ معهم سرًا تلك الطقوس من دين أبويه، يصلي معهم أيضًا في جوف الليل، يهمسون بكلمات قليلة مليئة بالأمل كافية لتلامس وجدانه، كان يعلم أنهم مختلفون عن الأسياد والنبلاء، حتى جاء اليوم الذي وشت بهم فتاة خرقاء تدعى خوانا، رآها يوما محنية الظهر فوق طاولة ومن خلفها كان النبيل دوجلاس ملتصقا بها يدفع بجسده نحو مؤخرتها، كان صغيرا ولم يفهم ما يدور بينهما، ومن تأوهاتها ظن أن السيد يعذبها، ولكنه فهم متأخرًا أنها كانت تتودد للنبيل حتى يقربها من غرفته ومن ثم تترك الجحر الذي تبيت فيه، جمعوهم داخل القبو وجاء رجال ديوان التحقيق، بحثوا في أرجاء المكان عن أوراق مكتوبة بالعربية، وكشفوا عورات الأطفال ليتأكدوا من أنهم لم يختتنوا كما يفعل المسلمون، وبعد ذلك نُقل الجميع إلى مقر الديوان، حيث عُزل عن بقية الأطفال الذين يصغرونه جميعًا، وسُحب كل من يعرفهم إلى داخل الغرفة الموارب بابها، كان يسمع الصرخات التي سرعان ما يكتمها صرير الباب قبل أن يوصد، اعترفوا جميعًا بهرطقتهم هكذا حدثه أحد الرهبان المحققين، وعليه أن يتحدث

ولكنه أبى وقال إنه لا يعرف شيء، وفي إحدى المرات تُرك له الباب مفتوحًا فاختلس النظر... كان الأمر بشعًا، كبيرة الخدم اعتِماد القادشية مصلوبة على الجدار عارية، جسدها العاري مدمى، به جروح عدة ونزيف لوث بياض بشرتها، ما زالت تتنفس وتأرجح رأسها يمينًا ويسارًا ببطىء، أما زوجها الكهل جونزاليس مات وجزء كبير من صدره قد سُلخ، أما راؤول البستاني يجلس على كرسي الشوك وترك لينزف حتى الموت، عيني إيزابيل تتحرك رغم أنها قد فقدت عظام جسدها على آلة تكسير العظام... ولم يبقَ سواه، فأي آلة سيموت عليها!

علم في تلك اللحظة أنه سيموت بشكل أو آخر مثلهم، ولكن ليس ذلك اليوم، فسانشو الصغير كان يزور الكنيس كل أحد، هكذا أفادت شهادة الواشية خوانا بأنه فتى طيب مسيحي مخلص للرب والكنيسة، حاول فهم لماذا فعلت هذا؟! ولم يجد سببًا، فشلوا في معرفة أين أخفى العجوز جونزاليس بن عمار تلك الكتب والأوراق العربية، وأصرَّ سانشو على العناد وإظهار البلاهة، تركوه وذهبوا بعيدًا، كان يتابع أعينهم بينما يتشاورون في أمره بأحد أركان القاعة، كانت تصله همهماتهم فجلس يرتقب مصيره، في تلك اللحظة الكئيبة بداخل الغرفة المعتمة شَعر بأن هناك أمل، هناك حياة تنتظره.

أخيراً.. تنازل عنه النبيل وسئم الحضور للشهادة في تلك الواقعة، أصلبوه أو أحرقوه إن أردتم وانهوا ذلك الأمر، كلمات كسرت ذلك الطوق حول عنقه، لم يعد مستعبدًا وليس عليه إلا قضاء بعض الوقت في سجن الديوان، استعملوه كصبي ناقل لدلاء الماء، شهور قضاها في ديوان التفتيش يلقى إليه بفتات الطعام، مقابل أن ينظف آثار دماء قومه المعذبين، يغسل الأرضيات الزلقة ويمسح ما علق بها من بقع دماء لا تمحى، كل ليلة تمر عليه كثير من الوجوه التي افتقدها وقد تبدل حالها، كان يبكي كل ليلة فتحيطه هالة تحميه من صراخهم واستغاثاتهم.

ذات صباح حمل دلوه وتوجه إلى غرفة التحقيق، كان عليه أن ينظف المكان، عامود مائل من ضوء النهار منح المكان ضياء كاف ليرى أصحاب الأجساد الزرقاء، نظرات من يداهمهم الموت أحيت شيئًا بداخله، تمتماتهم المتقطعة بالعربية تمزق كيانه، حاول إخفاء مشاعره أمام القساوسة والرهبان، الذين ينعتوه بالموريسكي بقصد إذلاله أمام الذاهبين إلى الموت من بني جلدته، كتم ألمه حتى خرجوا، ثم سقى المعذبين حتى ارتوت صدورهم، لعلَّ هذا هو أكثر ما يستطيع فعله، عاد إلى زنزانته في ذلك اليوم بائسًا منتحبًا، لو كان له من الأمر شيء لحررهم، لو كان فارسًا كأجداده الذين عمروا تلك الأراضي يومًا لفك قيد الأسرى،

وسار في الأرض محرراً للناس من بطش الرهبان الذي أثاروا في نفسه سؤالًا يتردد كثيرًا بعقله، كلما كان يخلو لنفسه:

- إن كانوا هؤلاء خدمة الرب فكيف يكون الرب!!

كان ينظر إلى جسد المسيح المصلوب متأملًا سائلًا إياه: من أنت، ولماذا لم تمنع عن نفسك العذاب حين حملت الصليب على ظهرك، هل تاج الشوك هذا يستحق أن يكون تاج الرب؟ هل علينا أن نتألم كما تألمت؟ وكزه بعَصا المقشة يومًا، لم يدافع عن نفسه، لماذا يدفع هو وبني قومه جزاء فعل لم يقترفوه إذن؟ ألم يفدِ المسيح البشر جميعا!! هل يتمتع بآلامنا تحت نظر تماثيله، كان يرى العجب من ضحايا ديوان التفتيش، صامدون على ما آمنوا به، حتى عندما تخترق الخوازيق أجسادهم، الطبيب ألفونسو كان أحد الضحايا، ابتسم رغم ما فعلوا به، آثار ذلك سخطهم فضربه أحدهم على وجهه بغلظة، والدماء لم تمحُ ابتسامته المعهودة، أسلم روحه وهو ينطق باسم الإله الواحد الذي ليس كمثله شيء، حاولوا أن يسكتوه فمات وهزمهم ببسمة ظلت عالقة على شفاهه الزرقاء.

سنوات قضاها في ذلك المكان المعتم، حتى تم بيعه كعبد للخدمة على السفن المتجهة للعالم الجديد، ولم يلبث إلا أن رأى لشبونة وأسوارها من البحر تبتعد رويدًا حتى ابتلعها

الأفق، النوارس والبحر ورذاذ الموج والحرية... ليست سوى وهم، نظل أسرى لشيء ما بطريقة أو بأخرى، فقط اختلفت أجواء العبودية عن ذي قبل.

حملته تلك السفينة الإسبانية، وجاب بلاد العالم الجديد، الشواطئ الفيروزية والرمال الناعمة، هافانا.. تلك المدينة الآخذة في النمو كشجرة غريبة زرعت في غير أرضها، تحظى برعاية التاج الإسباني وتبنى بسواعد العبيد من الموريسكيين والسكان الأصليين للبلاد، ملامحهم لا تتناسب مع تلك الملابس التي فرضت عليهم، الغروب على ساحل كوبا كان ساحرًا، ولكن ما زال خلف البحر بلاد عديدة سيزورها حتما، وكانت هَايتي من عَلقت بقلبه وعقله، قصَّ أحدهم على مسامعه كيف جاء كولومبس إلى هنا، تحطمت سفينته ذات لواء القيادة على سلسلة من الصخور، وعلقت أمام الساحل، أهل الجزيرة البسطاء ساعدوه هو وطاقمه؛ بل قدموا له الذهب.. كثير منه، ومن هَايتي عادت السفن إلى لشبونة في حالة مزرية، أشرعة منهكة ومقطعة وبَدن مهترئ، كان يأمل في إيجاد آسيا، وخان الصين العظيم فوجد عالمًا مختلفًا غنيا بالمعدن القاتل –الذهب– الذي من أجله تفنى إمبراطوريات، ويَقتل الناس بعضهم بعضًا، وفي هَايتي كانت الحكايات لا تتوقف كتلك السفن المارة بجوار الأرخبيل العظيم، لبث فيها فترة قبل أن يمضي إلى ساحل المكسيك؛

حيث رأى العجب العجاب من النباتات والمخلوقات والبشر، كانوا عبيدًا أيضًا ولكن أسوأ حالًا، عراة خائفين مطاردين في الأحراش الكثيفة، وجوههم وأجسادهم ملطخة بالألوان، يسامون سوء العذاب في العلن، ليس مثل بني جلدته في أقبية تتنفس القليل من الضوء..

كان قد تجاوز السادسة عشر حين نُقل إلى تلك السفينة العظيمة، سفينة برتغالية ولكن جلَّ بحارتها قشتاليون، رأى أحدهم يؤدي حركات يذكرها جيدًا، لم ينسها ولكن ظن أنه لم يبقَ أحدٌ على تلك العقيدة بعد كل الفترة التي لبثها في البحر، الأيام وقسوتها كانت كافية لينهك ولا يهمه سوى أن يمضي اليوم ويأتي آخر، يبحر ببحر الحياة دون جدوى، إبحار دائم ورسو دون هدف، حتى وجد ذلك الشخص؛ ظل بعدها لأيام يتلصص عليه، يتتبعه أينما قصد وكان ذلك في ساحل قشتالة الجديدة، العجيب أن ذلك البحار انضم للطاقم وسط ترحيب من الربان، كان اسمه دي بالسيو، أندلسي الأصل يقولون أنه من أسرة اهتدت إلى المسيحية قديمًا، وإنه من أجدر البحارة، يعرف مواقيت النوات والعواصف، ويستطيع أن يسبر أغوار السماء، ويحدد مواقع النجوم، وموعد تقلب البحر.

في إحدى الأيام قرب شاطئ كوبا بينما كان الرجال

يجهزون أنفسهم للقاء الأرض التي لم يروها منذ أشهر، اختفى البحار دي بالسيو. جال سانشو فوق سطح السفينة بنظره لم يجده، بحث في كل مكان، داخل قمرات النوم، وقرب مخازن النبيذ، وسكن المجدفين. لا أثر للرجل على متن القارب الشيء الذي أثار حيرته، التفت عائدًا حتى لا يفقده أحد هو الآخر، ولكنه ارتطم بعيني دي بالسيو، كان يسد المدخل بقامته الطويلة قائلًا:

- لماذا تراقبني يا فتى؟؟

تردد سانشو في قول الحقيقة، حاول المغادرة فمنعه دي بالسيو بدفعة قوية أعادته لمكانه مرة أخرى، تلعثم سانشو وهو يقول:

- ولماذا أراقبك؟؟ أهناك شيء تخافه؟؟

- تتبعني منذ فترة واستطيع رؤية ما بداخلك.. قل لي من أمرك بمراقبتي؟ الربان أم القس؟

- لقد رأيتك تؤدي طقوس الدين المحمدي.

دام الصمت طويلًا هذه المرة، حتى حك دي بالسيو ذقنه الخشنة بأصابعه واقترب منه محدثًا إياه:

- سوف تشي بي أليس كذلك؟!

ابتسم سانشو وهو يقول العربية:

- لا تخف يا أخي فأنا على دينك.. أنا موريسكي أيضًا.

***

رفيقان رغم أيام الحذر الذي عاشها دي بالسيو، أو كما يكني نفسه سرًا «سعد القرطبي»، كان يخاف من أن يكون سانشو واشيا لديوان التفتيش، ولكن الشاب صار يتعلم منه الكثير، أحس بالمسؤولية تجاهه، يرعاه. يتحدثان كثيرًا، ويتدربان على المبارزة والرمي، ويصليان حين تواتيهم الفرصة... أعوام من الإبحار سويا كبر سانشو خلالها، وتخطى سَعد منتصف العقد الرابع من عمره، وجد المشيب مستقرا له بشعره ولحيته، ولا زالت عيناه تفيضان بمرارة سنين قضاها في الأسر؛ ولكن رغم ذلك ظل مبتسمًا، ولد بقرية صغيرة تقع على الدرب الواصل بين قرطبة وطليطلة، طفولته بائسة وواقعه أسوأ، رحل بعض أخوته إلى الجزائر وتطوان وأخواله أعدموا حرقًا بساحة قلعة رباح، قصة تغاضى عن سردها لسانشو، واكتفى بحكايات عن الأندلس الغابرة، ذكره بأصله ومنحه فخر أمة كانت تحكم تلك الأنحاء يوما ما، كثيرًا ما كان يجيب على أسئلة سانشو التي لازمته لسنوات.

حملتهم الأمواج لبلاد مختلفة عبر بحر الظلمات الذي أضاءته قناديل السفن الإسبانية، وكأغلب بحارتها كان سعد

يتحين الفرصة للهرب، ولكن الشوق للأندلس كان يُغَالبه، تمنى أن يفر ويذهب للعيش في جبال غرناطة أو وديان جيان الخضراء، لعله يجد مستقرا له في أحواز إشبيلية، كان يحلم بالحرية ويتحدث عنها كثيرًا، العدل الغائب عن هذا العالم لا بُدَّ أن يأتي يومًا ويتحقق، لقد سئم وسمه بالموريسكي... كلما رست سفينتهم في ميناء، كانت قصص بني جلدته الهاربين إلى غابات العالم الجديد لا تتوقف، تطاردهم فرق الصيد القشتالية، وبعدها تحلق الطيور فزعة من صوت البنادق، وسرعان ما تعود رؤوسهم إلى السفينة بينما تبقى أجسادهم في غياهب الغابة، لم يسمحوا لهم بالاختلاط مع السكان الأصليين، عدة مراسيم صدرت في لشبونة وقشتالة تمنع استخدام بحارة موريسكيين إلا أن السفن كانت بحاجة إليهم، كانوا يعرفون البحر جيدا، مخلصون في عملهم ويؤدونه على أكمل وجه؛ رغم ما يلاقونه من ويلات، ودينهم المحمدي صار يلقى رواجا بين العبيد. مما جعل محاكم التفتيش تكشر عن أنيابها في وجوههم، الجميع متهمون حتى يشربوا الخمر ويأكلوا لحم الخنزير، لأيام حاول إقناع سانشو بالهرب حين ترسو السفينة بسبتة المغربية، من السهل الهروب إلى الجبال هناك ومنها لأعماق المغرب، حيث يقبع من رحلوا عن الأندلس منذ زمن، ظل سانشو يفكر خائفًا من أن يلقى مصير الهاربين،

أما دي بالسيو فقد عَزم على العودة إلى قرطبة والبحث عن سبيل للمقاومة، سيفترقان في سبتة وعلى سانشو الهرب كما أخبره صاحبه، حددا اليوم ولكن الحمى غشيته قبل موعد الوصول إلى سبتة، اشتد عليه المرض فجأة، وسفينة العمر تدنو من مرفأ النهاية، نظراته زائغة وهمهمات بالعربية لا تفارق لسانه، جسده دافيء والعرق يتصبب من جبينه، يغيب عن الوعي ويعود مناديًا سانشو المرتاع، أدرك أن الرحيل قد حان، كان صاحبه يلفظ أنفاسه الأخيرة بينما يمسك بيد مرتجفة يداه الباردتين، همس بوصية أخيرة، أن يدفن كما دفن أبوه وأجداده، وبصعوبة لقن سانشو كيفية الصلاة، وبضع كلمات.

دُفن سعد القرطبي بأرض العدوة المغربية، منح صلاتين، صلاة سانشو المحمدية وصلاة الربان الكاثوليكي، الذي منح سانشو حق دفنه كما يحلو له، واراه ثرى ربوة عالية من أرض سبتة تطل على بحر الزقاق، وفي الأفق جبال الأندلس على الجانب الآخر تودع جثمان سَعد باكية في عين سانشو الحزين، شجن وشوق للموت دفعا الشاب للبكاء والنحيب.. تمنى أن يدفنه أحدهم بجوار صاحبه الذي حصل على مبتغاه وحريته أخيرًا، سيبقى جثمانه في ذلك اللحد إلى يوم يبعثون وستبقى روحه هائمة فوق ذلك القبر تشاهد شمس الصبيحة تشرق على أرض أجداده وتودعها مع المغيب،

رحل عن القبر حاملًا بقلبه ألم وإحساس بالقهر، بقيت كلمات سعد تعصف برأسه، رددها كثيرًا كلما خلا إلى نفسه، يسامر بها البحر، يسأل نفسه إلى أين المفر الآن وقد سلبه الموت صاحبه، من خطط معه للهرب، وحثه على المضي قدما إلى الحرية، رحل الصديق وبقى أثره يتصفحه كل ليلة على ضوء قنديل خافت، يحاول قراءة ذلك الكتاب ذي الصفحات الصفراء المهترئة، حوافه زينت بزركشات أكلها الزمن، إرث سعد القرطبي، سطور عربية يحاول في صعوبة فهم بعضها؛ ولكن مجملها كان مفهومًا، يذكر النصوص جيدًا فقد تليت عليه صغيرًا في دارهم بمدينة لشبونة، أصبح سانشو أكثر عزلة، حتى جاء يوم لقائه بذلك الغريب... الإنكا دي لافيغا.

كان يشعر أن ذلك الرجل من العالم الجديد، يشبهه. غريب وحيد يحمل شذرات من عقيدة أخرى، نظراته للقمر وهمساته للبحر تعني ذلك؛ إلا إذا كان مجنونا، ذات يوم قرر أن يتحدث مع الغريب، انتظر حتى خلا السطح إلا من بعض البحارة، ثم تقدم في حذر نحوه قائلًا بالقشتالية:

- عذرًا يا سيدي، هل لي أن أسألك، أرى أنك تحب البحر وتجلس بالساعات هناك تتمتم بشيء ما. هل هذه طقوس خاصة بالإبحار؟ قد أكون متطفلًا ولكن لدي فضول لمعرفة ما تهمس به للبحر ليظل هادئًا هكذا؟

التفت دي لافيجا إليه ضاحكًا وقد تطايرت خصلات شعره السوداء بفعل الرياح الشمالية الباردة:

- لا تخف، أنا لست مهرطقا بالتأكيد.

- سيدي لم أقصد ذلك ولكن.. هذه المرة لم يتحرك موج البحر منذ خرجنا من المرفأ.

- ما اسمك؟

- سانشو.. سانشو الأشبوني.

- حسنا يا سانشو، هل تظن أنني سبب هدوء البحر؟ أنت موريسكي أليس كذلك؟

أصاب قلب سانشو نزغ من ألم، كلمة الموريسكي كانت سكين غمد بصدره حتى المقبض، نعم هو موريسكي أقل شأنًا منهم، أقصد ذلك الرجل إهانته وتذكيره بمن هو؟ حاول التراجع وقد غزت الهموم وجهه في خيبة أمل واضحة، فأمسك دي لافيجا بكتفه قائلًا بصوت ذو نبرة حزينة:

- أعتذر عن وصفك بشيء لم تختره.

رفع سانشو عيناه ناحية دي لافيجا وحاول قول شيء، ولكن الأخير تابع:

- ربما يكون المغزى من الاسم سيئًا، وبه إهانة كبيرة لك

ولأجدادك، اجعله جزء منك لكي يذكرك بمن أنت، أنا مثلك يا سانشو لست سوى هجين، أحظى بمكانة كانت لأبي الذي خالف كل الأعراف والعادات وتحدى الأوامر، ظفر بأمي وظفرت باسمه ونبالته. ولكني لم أنسَ أني إنكا وهذا ما أحب أن ينادوني به.

بدى أن دي لافيجا يشعر بمرارة لا تقل عما يحمله سانشو بداخله، فهو يعامل معاملة حسنة أما أقاربه من أهل البيرو فكانوا أتعس حظًا منه، القتل والتشريد ناله كثير منهم. ومن بقى تحت إمرة الإسبان نال لقب عبد، أما هو حتى وإن كان ابن أحد نبلاء قشتالة، إلا أنه لم يرَ في هؤلاء الفاتحين إلا قتلة، يحفظ عن ظهر قلب ما قصته عليه أمه، فظائع من كانوا يعتقدونهم آلهة هبطوا من سفنهم ليعم خير لم يأتِ معهم، دروعهم اللامعة وأسلحته المتطورة منحتهم هيبة أبناء الشمس، جاؤوا بالهلاك إلى عالمهم، لتتهاوى إمبراطورية عظيمة وتُسرق حضارتهم، لا يجد في إسبانيا الذاهب إليها شيئًا مثيرًا، سوى البحث عن أصل والده والحصول على ميراث الذكرى، كانت الحكايات عن قشتالة مميزة ولكن ينقصها شيء ما، أراد رؤية أرض الفرسان والذهاب إلى كاستيا دي مانشا والتجوال والتعرف على كل مكان بقشتالة وأراغون، وهذا السبب الذي جعله يركب تلك السفينة تاركًا خلفه ذكريات وبلاد أحبها.

كل ليلة تنتظر نجوم السماء أن تسمع حكايات دي لافيجا وتنصت لامعة لقصص سانشو، بكت السماء يوم أن قص حكايته في ديوان التفتيش بلشبونة، وأمطرت حين جاء على ذكر سعد القرطبي، صاحبه ومعلمه الذي فقده منذ زمن قريب، نبرة دي لافيجا كانت تحمل شجن ليالٍ جبال البيرو، وفتاة اسمها كوتشوا كان يحبها ولكنها فضلت الهرب مع قبيلتها إلى الجبال خوفًا من بطش الإسبان، كانت ثائرة تريد استرجاع كوزكو ومجد الإنكا، ضفائرها السوداء وبشرتها الذهبية سلبا عقله، كان يحثها دوما على الذهاب معه إلى إسبانيا، لكل منهما طريق آخر وكانت النهاية محتومة بكلمات قاسية ألقتها على مسامعه:

- أنت واهم يا دي لافيجا.. لقد صرت مثل هؤلاء الغزاة الآن.. تلبس ملابسهم وتتحدث بلغتهم ولا يرمش لك جفن حين ترى أخوالك مهانين.. كنا أحرارًا قبل مجيء هؤلاء القتلة والآن أصبحنا عبيدًا، وهم أسياد وأنت ابن أحدهم.

لم يحاول الرد فكلماتها كرأس سهم غرس في قلبه، أصابت لُبّ الحقيقة فأخرسته، أيام ظلّ حزينًا على رحيلها، وحين ظن أنه نساها رآها مكبلة برفقة عدد من الأسرى والجرحى، متمردين خانوا تاج الملك والحاكم باسمه، مهرطقين يناهضون الرب ومشيئته.. فكر كثيراً في تحريرها ولكنها

أبت الرحيل دون أهلها وأخوتها، عنيدة تسببت في مقتلها على رؤوس الأشهاد، ذكراها تؤرقه دوما، تذكره أن الحماقة هي لُبّ الشجاعة، ما الفائدة التي جلبتها لنفسها وأهلها برفضها الهرب، كان من الممكن أن تبدأ حياة جديدة بعيدًا عن الحرب والقتل والدماء، ولكنها أبت إلا أن تموت كما أرادت أن تحيا، أقبلت على منصة الشنق دون أن ترتجف، واثقة الخطى مرفوعة الرأس بشموخ كان هذا ما أراد تذكره، ولكن مشهدا آخر مؤلما ظلَّ عالقًا بعقله، جسدها النحيل يتأرجح معلقًا بحبل غليظ سلب روحها.

حكاياته الحزينة جعلت سانشو يشعر أن هناك من هو أكثر بؤسًا منه، حديثه عن النساء والحب..كيف نجد من يشبهنا ويميل له القلب، ولكن اللقاء يكون في موعد وزمن خاطئ.

تتشابه القصص والشخصيات.. الحديث مع دي لافيجا لا ينضب، عوضه القدر برفيق جديد ولكن قلبه ما زال عامرًا بذكرى سعد القرطبي، لا يعلم لما أفصح لصديقه الإنكي بدينه الذي يخفيه وأصله الذي يفخر به، ربما لأنهما متشابهان ورحلتهما البحرية اقتربت من نهايتها، فقادش تلوح في الأفق بأبراجها الأندلسية وأسوار قصبتها العتيقة وعلم قشتاله يرفرف، وقفا يراقبان الشاطئ والرجال يستعدون للرسو. سأله دي لافيجا:

- هل هناك من هم مثلك في تلك الأرض يا سانشو؟؟

- أينما وليت وجهك ستجد الأندلسيين في كل مكان.. حتى وإن خلت منهم حصون وقرى وبلدان ستخبرك الجدران والأبواب عمن عمروها ذات يوم.

اعتمر دي لافيجا قبعته قائلًا :

- إذن ابحث عنهم وجاورهم يا فتى.. أو ارحل عن تلك الديار كما فعلت أنا.. عش حياة جديدة ابحث عن الحرية أو مت وأنت تحاول مثل كوتشوا.

نزل دي لافيجا على مرسى قادش مودعًا إياه، استقبله ركب عظيم من فرسان قشتاله، أما هو فأكمل رحلته إلى لشبونة، حاملًا معه هما جديدا، أي ديار يرحل عنها، وهو الذي أصبح البحر مسكنه، أبعدوه عن أرض مولده كرهًا، وفرضت عليه حياة لم يتخيلها عقله الصغير حين أخذوه لديوان التفتيش، لملمت الأشرعة ورفعت المجاديف أخيرًا في لشبونة، غادر البحارة وبقى سانشو على ظهر السفينة القابعة على رصيف الميناء، يراقب حركة الناس في صمت، الجنود البرتغاليون منتشرون، ولا يخلو المشهد من الرهبان ورجال ديوان التفتيش، يرمقون المارة الذين يتحاشون التواجد بقربهم، أتى الليل وأضيئت المشاعل، لشبونة تبدل حالها عما رآها آخر مرة، تكبر يوما بعد يوم، كلما بدأ رحلة

يعود ليجدها بحلة جديدة، في إحدى الليالي الدافئة لملم أمتعته في جعبة صغيرة دسّ بين طياتها كتابه المقدس وقرر المضي، نزل من السفينة إلى المرفأ ومنه إلى الأسواق الخاوية والأزقة الساكنة، المدينة تغط في النوم والظلام، أخذ يسير على غير هدى يتلمس الجدران، لا يدري إلى أين يذهب حتى أعياه التعب، فجلس أسفل عقد أندلسي يربط منزلين ببعضهما البعض، أسند ظهره إلى جدار بارد تكسوه أفرع وأغصان لشجرة متسلقة، أغمض عيناه وراح في نوم عميق لم ينم مثله قط.

***

أيام قضاها سانشو يجوب طرقات لشبونة بحثًا عن أي علامة تقوده إلى منزلهم القديم، اشترى ملابس جديدة وشذب شاربه ولحيته، أصبح كأبناء النبلاء بملامحه الأندلسية الأصيلة، فهو ينحدر من عائلة من المولودين، أجداده دخلوا إلى دين العرب فاتحين تلك البلاد؛ هكذا جزم سعد القرطبي يومًا، رحل فاتحون وجاء غيرهم، ليقولوا استرددنا أرضنا من هؤلاء العرب وإن كان الأمر كذلك هل لهم الحق في سلب موطن دي لافيجا وكوتشوا؟! هل كان لهم الحق باستعباد أهل العالم الجديد؟ وأن يتفاخروا بكونهم فاتحين.. لا زال يحاول فهم الفرق بين الغزو والفتح

وكلاهما مضادان لبعضهما البعض، لا يعرف من أرض الأندلس سوى لشبونة ولم يغادر أسوارها برًا قط، يراها من البحر مرتفعة، فهي تقبع فوق تلة يخترقها خليج يشطرها لنصفين، والأحياء القديمة التي يجب عليه زيارتها، تقع في الجانب الشرق والجنوبي، أوشكت عملاته الفضية على النفاذ، ولا يعلم إلى أين سيذهب إن فرغ جيبه. طالت رحلة بحثه عن الحي الذي كان يسكن فيه، ولكنه تلاشى من ذاكرته، يرى كثير من الموريسكيين يوميًا، ولكنه لا يجرؤ على الحديث مع أحد، ففي الصمت السلامة وفي الكلام الندامة، والمدينة تشهد يوميًا مواكب ديوان التفتيش وعرض للمذنبين، حيث يختفي الموريسكيون عن المشهد خوفًا مما يصيبهم جراء عصبية وشراسة المسيحيين القدامى.

الصقيع يتغلغل في أوصاله والغيم تجمل بحمرة المغيب، عقله يلح عليه بالعودة إلى السفينة وحياة البحر، شعور بالغربة والوحدة يداهمه، الشوارع خوت من المارة والمدينة على حافة بحر هائج موجه يُنذر بعاصفة قريبة، سار حاملا جعبة ملابسه ومقتنياته القليلة، وقادته قدماه إلى أحد الأحياء الفقيرة حيث الدروب أضيق، متاهة غير متناهية من الجدران ومنازل الغانيات، حانات كثيرة تعج بالصخب والغنج اختطفته نظرات الحسناوات ورقص لهب المشاعل والقناديل، ابتسامات غاوية وصدور عارية، قادته امرأة

سمينة ثرثارة عَبر ممر مسقوف، وما لبثت أن حشرت جسدها بمدخل باب عتيق ما إن عبره حتى صار في عالم جديد...

صخب رائق، أنغام قيثارات هادئة وضحكات دلال لحسناوات يتمايلن منبثقين من دخان خشب هندي يعطر الأرجاء، عيون مكتحلة ووجوه مليحة فاتنة، وأيادٍ ناعمة تتجاذبه برقة خُيل إليه أن كل هذا هذي وقبس من خيال... إنه ملقى على ظهره ممدًا على الأرضية الخشبية للسفينة، والموج يتلاعب به، بتول بين يدي خبيرة تتحسس تفاصيل جسده الفَتِي، كمن يخوض بحرًا هادئا ذا موج ناعم منحه استرخاءً يستسيغ طعمه لأول مرة، لذة اقترنت بأنفاسٍ اكتسبت حرارتها من جسده الملتهب، أسقته الخمر قبل أن تسكبه على صدره لتلعقه بعد ذلك، كل شيء كان على ما يرام حتى برز وجه دي لافيجا من العدم يرمقه باشمئزاز، صوت سعد القرطبي يدوي في أذنيه:

- لا تترك روحك للضياع.. هي حياة واحدة فاجعل لك فيها غاية.. هذا ما يجب أن تكونه يا سانشو.

صوت طرقعة عظام اعتماد القادشية بديوان التفتيش، والأب ميجيل يتلو عليه آيات الوعيد، ونار متأججة تبتلع أمه وأبيه... عبد الله بن طاهر الأشبوني... اسمه عبد الله

وليس سانشو... نادت أمه باسمه يوم قُبض عليها، صرخت وتوسلت أن يتركوه وناشدته أن يهرب، ولكن أيديهم الغليظة أمسكت به، والغانية تغرس أظافرها بجسده، لبوءة ظفرت بفريستها وراحت تقضم رقبته.. انقلبت بعدها متدثرة بجواره منهكة، ظلَّ يحملق بالسقف لبرهة، شعُور بالذنب والشفقة على نفسه، اعتدل جالسا على طرف الفراش متقززًا، نظرة طويلة ألقاها على تلك الحسناء الغافية ثم نهض وارتدى ملابسه في عجالة، صفق الباب خلفه في قوة، غير مبال بصراخ السمينة التي تريد ثمن إفراغ شهوة عكرت صفو ليلته، ركض عبر الأزقة الخالية باتجاه البحر، أنفاسه الدافئة تصارع برودة الطقس، والسماء سوداء وتجلت نجومها فوقه. أشاح بوجهه مستقبلا الهواء البارد، تمنى لو يغسل ما علق به من دنس... الحافة الصخرية والبحر الهائج ملاذه... كان يعي ما يفعله، جلَّ ما أراده هو التحليق في الهواء، كعصفور يطير للمرة الأولى خفق بذراعيه محلقًا.. مبتعدًا عن تلك الأرض وأهلها، لم ينبت له جناحات وخرَّ كحجر ثقيل هوى من الحافة إلى الماء.

***

هبط نورس وحيد فوق كومة من الصخور القريبة من الشاطئ، أخذ يبحث عن وجبة سهلة ألقاها الموج بين

الصخور، أو سلطعون سيء الحظ يبحث عن زوجته، بتوجس انتقل لصخرة عالية ودار في المكان بحثًا، حتى وجد وليمته، قفز فاتحًا جناحيه بزهو وهو يستقر على صدر الجيفه بروية، لحظة مرت قبل أن يبدأ في نقر وجبته، وخزات تزامنت مع كابوس علق برأس سانشو الذي انتفض فزعًا، فما كان من النورس إلا أن لطم وجهه بجناحيه وهو يحلق صارخًا، الشمس متوهجة وضيائها يغشى عيناه وذلك الطائر يزعق حزينًا على طعامه الذي عادت إليه الحياة، تحسس سانشو صدره رافعًا طرف قميصه متمتمًا: «ذلك المسكين ظن أنني وجبة سهله... ستترك هذه الآثار ندوبًا دائمة على ما يبدو».

مسح الدماء ونهض متثاقلًا وعيناه تطوف في أرجاء المكان، يبدو أن الموج ألقى به إلى الشاطئ الصخري، أخذ ينظر إلى البحر محاولًا تذكر ما الذي دفعه لفعل ذلك الشيء المجنون، كل ما يذكره أنه كان في ماخور، ضاقت عيناه وهو يتحسس ملابسه، جعبته ليس لها أثر في الأرجاء أيضًا، هوى قلبه لمجرد فكرة أنه أضاع إرث سعد دي بالسيو... ضرب رأسه بكفه مرارًا محاولًا التذكر، صوت برأسه يخبره أن البحر أبتلع مقتنياته، ولكنه تذكر أخيرًا، لقد تركه في الماخور.. نعم حين خرج راكضًا نسيها هناك، عليه العودة ولكن كيف سيدخل بعد جموح ليلة أمس؟!

استقبلته السيدة البدينة بنظره غاضبة وبكلمات امتزجت بالتعنيف واللوم، سرعان ما صمتت حينما ناولها قطعتين فضيتين، دلف إلى الغرفة ليجد فتاة أخرى غير تلك التي كانت بين ذراعيه أمس، جال بعينيه في المكان بحثًا عما فقده، غير مبال بنظرات وحركات الغاوية المتلوية على طرف الفراش، أزاحها جانبًا ليبحث أسفل الفراش، عقدت الدهشة لسانها فلم تنطق، نهض مبديًا نظرة غاضبة مطلقًا زفيرًا قويًا قبل أن يقول:

- أين صاحبة تلك الغرفة؟؟

أجابته الفتاة بغنج:

- أو لست أنا أفضل منها...

أعاد سؤاله مرة أخرى، فأشاحت بوجهها تصطنع الدلال، فما كان منه إلا أن غادر الغرفة إلى حيث تجلس السمينة فسألها:

- أين تلك الفتاة التي كانت هنا الأمس؟؟

قالت بسخرية:

- أتبحث عن والدتك!!

قبض سانشو على تلابيبها وقرب وجهه منها قائلًا:

- كلمة أخرى وسأفصل رأسك عن جسدك.

بنظرات خائفة، وصوت مرتجف أشارت:

- سيلفانا.. إنها بالغرفة الأخرى.

أفلتها وتوجه للباب حيث أشارت، لم يكن بحاجة ليطرق الباب فقط دفعه بقوة، ليفزع من بالداخل، لم يبال سانشو بذلك العاري الذي أخذ بالصياح ولملمة ملابسه، نظرة واحدة كانت كافية فقط ليصمت، في حين اقترب من الفتاة المذعورة قائلًا:

- أين أغراضي؟؟

أشارت الفتاة ناحية خزانة الملابس الخشبية، لم يكن بحاجه لكثير من البحث، كانت جعبته مستقرة بين ملابس نسائية تفوح منها رائحة العرق، جذب حقيبته وأخذ يقلب فيها بحثًا عن كتابه المقدس، ابتسامة ظافرة تزامنت مع صراخ صاحبة المنزل في الخارج، تفحص صفحات الكتاب على عجل واستدار بعدها ليخرج، جلبة وضوضاء خارج الغرفة جعلته يخرج بحذر ليفاجأ بمجموعة من الجند يقفون على الباب والسيدة البدينة تشير ناحيته، التقت عيناه بعيني قائد الجند، فما كان منه إلا أن صفق الباب بسرعة، الغرفة الضيقة بدت كمصيدة علق بها، ولا سبيل أمامه للهرب سوى

النافذة، هم بالقفز منها فأمسك الرجل بساقه، وكان جزاءه ركلة كسرت أنفه، انفجرت الدماء وتعالى الصراخ حين تهشم الباب، وقدما سانشو تثبته على الأرض وسط السوق المزدحم... ومن النافذة أخرج أحد الجند رأسه صائحا:

«أوقفوا ذلك اللص».

***

شتاء طويل جاب فيه سانشو أصقاع البلاد متخفيًا، الشجيرات الخضراء اليانعة شكلت طعامًا جيدًا لحصانه المختال، كان رفيقًا جيدًا ومستمعًا لا يمل من حكاياته، خاضا الوديان والجبال وقضيا الخريف في قرية قريبة من شنترين ومع حلول الصيف رحلا إلى قادش، التجول على الشواطئ ذات الكثبان الناعمة جعل الجواد سعيدًا يركض ويقفز وينثر الماء، تأقلما على التسكع بين القرى البرتغالية والقشتالية، احتضنتهم الكهوف الجبلية الوعرة، أحب قرى لبلة وماردة ورأى فيهما كثيرا من الموريسكيات يلبسن الحايك واللباس القديم، يستطيع أن يعرف مكنون صدورهم من عيونهم المليئة بالشجن، تحاشى الخوض في الحوارات خوفًا من الوشاية به، كان حرًا غريبًا يجوب البلاد دون هدف، إن كانت هذه الحرية التي حدثه عنها دي بلاسيو فهو ما زال سجين الوحدة في أرض لا يعرفه فيها أحد، يشعر في

ثنايا الأزقة والدروب بالألفة وكثيرًا ما يداهمه البكاء على أطلال أمة تبدل حالها، وإن كان دي لافيجا محقًا فيما قاله عن الحرية «كن طائرًا واتخذ من السماء موطنًا يا سانشو.. الوطن هنا يا فتى الوطن في القلب وليس أرض يحكمها الأوغاد»، حتى حلمه الوحيد اختاره له سَعد أن يهرب إلى أرض المغرب ومنها ينضم إلى سفن السعديين أو الأندلسيين المقاومين، لديهم سفنًا يهاجمون بها أساطيل قشتالة والبرتغال، ولكن الرجل مات ودفن على الشاطئ المقابل لأرضه التي أحبها كثيرًا، حتما سيزور ويبحث عن بيت سعد دي بلاسيوس، لعلَّ روح الأخير عادت أدراجها لتلامس الجدران الباردة للدور المهجورة.. والطريق إلى ديار سعد بقرطبة مليئة بمدن سيكون عليه زيارتها.

قادته الأقدار إلى بطليوس وأسوارها الضخمة والأعلام الحمراء ذات القلعة الذهبية تخفق فوق القصبة الموحدية القابعة على ربوة عالية، ومن خلفها تمتد أراض قشتالة، مدينة مهيبة عتيقة أودع حصانه باسطبل قريب من السوق وراح يتجول بين المارة، زحام لم يألفه في مدينة فلاحية، وجوه بدت مألوفة وألسنة لا زالت تنطق بكلمات عربية، كان ذلك سببًا كافيًا ليثير بداخله بهجة بدت واضحة على وجهه، كلما رأى اثنان من التجار يتحدثان يقترب منهما مستبشرًا فيقابل بالتجهم والصمت، ألتمس لهم العذر وغادر السوق

متجهًا إلى الساحة الكبرى؛ حيث يتسكع العجائز والعاطلون، دوريات من الجند الإسباني تجوب الأرجاء، كان جائعًا ولا يملك سوى قطعة فضية ورائحة الخبز تزكم أنفه، اتجه إلى الفرن المزدحم اتخذ دوره منتظرًا حتى رأى عجوز تجلس على حافة الرصيف، بشرتها السمراء وتجاعيد وجهها وتلك النظرة الحنونة جعلاه يَشرد، أفاق على دفعه من أحد الرجال الذي سبه بالقشتالية، ونعته بالموريسكي قبل أن يبصق باتجاه العجوز الجالسة بالقرب منهما، حملق سانشو بوجه الرجل الذي أعاد على مسامعه:

- هل ستظل واقفًا هكذا أيها الجرو الموريسكي أم ستأخذ الخبز وتذهب لتجد نعجة تنكحها؟

ضم سانشو قبضته معتصرًا قطعة النقود، وهمَّ بقول شيء، لكن بائع الخبز تدخل سائلًا إياه:

- كم رغيف تريد؟

بدل سانشو نظراته بين صاحب المخبز وذلك الإسباني، ورحل بصمت باتجاه السيدة الجالسة يتبعه سُباب وبصقة لم يبالِ بها، اقترب منها بروية وحدثها بالإسبانية:

- هل تحتاجين للمساعدة.

زينت شفاها ببسمة طيبة، وقالت بصوت خافت:

- لا يا ولدي.

جلس إلى الرصيف بجوارها، ثم مد يده إليها بآخر قطعة فضية يمتلكها، دفعت يده بعيداً وبدت نبرتها حزينة:

- لم أطلب منك شيئًا.

- حسبت أنك قد تحتاجينه أكثر مني؟

- أنت غريب عن هذه البلدة إذن.. لكنتك القشتالية بها مسحة من البرتغالية.

أجابها مندهشا:

- نعم.. هذه أول مرة آتي فيها إلى هنا.

تفحصته لبرهة وقالت محدثة إياه بنبرتها ذات الشجن:

- أما أنا، أتي إلى هنا كل يوم كما اعتدت منذ سنين، لقد كان ذلك الفرن ملك لوالدي وأبيه من قبله وتبدل الحال وصادر الديوان كل ممتلكاتنا، زوجي مات مقهورًا، وأنا لا استطع المكوث في البيت وحدي، أتوكأ على عصاي كل صباح وآتي إلى هنا كما اعتدت أن أفعل مذ كنت صغيرة.

- أنتِ موريسكية.

- أنا عربية وأخوالي من البربر وتلك أرض أجدادي.. ولا

آبه لهؤلاء الملاعين ذوي الأقنعة والصلبان، الجميع هنا في بطليوس يعرف من أنا.. سُمية الاسم الأحب إليَّ؛ بينما أوراقي القشتالية تقول أن اسمي «استيرا».

- أنا أيضا مثلك حظيت باسمين إحدهما سُميت به سرًا، والآخر يناديني به من يعرفني وهم قلة وأظن أن لا أحد ناداني به منذ رحلت عن مدينتي التي ولدت بها.. لشبونة.

- لشبونة.. نعم أعرفها، لقد سقطت منذ زمن بعيد بيد البرتغاليين. ما الذي جاء بك إلى بطليوس؟!

صمت ولم يجد ما يقول، شَرد وهو يبحث في ثنايا عقله عن إجابة، أفاق على صوتها وهي تحدثه بالعربية هذه المرة:

- ما اسمك؟؟

- سانشو بن طاهر الأشبوني.. في الحقيقة لا أعلم لما جئت إلى هنا ولا أعلم مما أهرب، أنا تائه في هذا العالم، وصديقي الوحيد حصان أودعته باسطبل قريب من هنا.

- أنتَ مثقل بالهموم يا بني، وإن أردت أن تمضي قدمًا في هذه الحياة عليك الخروج من وديان الحزن التي تسكن بداخلها، وإلا ستبقى أسيرًا للكآبة حتى الموت.. أتريد أن تموت كئيبًا ألا يكفي ذلك السجن الذي نعيش فيه ونحن أحياء.. عاش أجدادنا أسيادًا لهذه الأرض ومن بعدهم صار

آباؤنا مدجنين تحت راية قشتالة والآن لقبونا بوسم غريب علينا وأصبحنا أقل مرتبة من عبيدهم.

- أتعرفين يا خالة.. لقد ذهبت إلى تلك البلاد التي يدعونها العالم الجديد.. وهناك أناس يُعاملون أسوأ مما يتم معاملتنا به هنا، فرض عليهم أمور غريبة على معتقداتهم وحياتهم.. الأمر بشع حقًا إن نظرنا إلى حال بني جلدتنا هنا فنحن أفضل حظًا من أولئك الأزتك والإنكا. أنا منهك.. متعب أسير في هذه الحياة دون غاية، ولا أعرف ما عليّ فعله بهذه الحياة، بحار موريسكي تائه في ثنايا هذا العالم.

- يبدو أن لديك قصصًا كثيرة لتقصها على مسامع عجوز لم تفارق بطليوس منذ ولدت.. أنت جائع أليس كذلك؟

اكتفى بابتسامة، فصكت وجهها ضاحكة:

- كانوا يقولون أني امتلك من الفراسة ما لم يمتلكها أحد في أرض الأندلس.. بالإضافة إلى أنك بائس فأنت تتضور جوعًا.. تعالَ معي.

- إلى أين؟

- سر معي فقط.. لقد امتنعت عن شراء الخبز لتمنح عجوزًا لا تعرفها كل ما تملك.. دعني أقدم لك شيئًا في المقابل.

سار بجوارها عبر الأزقة الضيقة لا يعرف إلى أين تقوده، كانت تحفظ الدروب والزنقات، حدثته عن أصحاب تلك المنازل المهجورة، والحساسين تتنقل على أغصان جافة خلفها الخريف، الهواء يعبث بالأوراق الجافة وذاكرة شمية تضخ الحكايات عبر الطريق كبئر يفيض مغرقا الدرب، تتكأ على عصاها محنية الظهر ولسانها لا يكف عن الكلام، وجدت ضالتها وراحة غابت عنها منذ زمن، كان يخشى أن يسمعها أحد تتحدث بالعربية وبدى أنها لا تبالي، أطفال يلعبن بالقرب من العطفة وما إن رأوها قادمة ركضوا مسرعين واختبئوا، تعجب من فعلهم وابتسمت هي متمتمة:

- إنهم يظنونني ساحرة، لا أعلم من أطلق هذه الخرافة بين أبناء المسيحيين ولكن الأمر جيد، فمنذ أن صارت تلك الحكاية تتنقل بين الأزقة ابتعد عني المتطفلون، رغم قضائي يومين بديوان التفتيش عدت إلى منزلي ووجدته كما هو لم ينهب، يخشون غضب الساحرة.

رمقها بصمت متوجس، فضحكت ليظهر بثغرها أثر الأسنان المفقودة:

- ها قد وصلنا.

أخرجت من طيات ملابسها مفتاحًا نحاسيًا دسته في الباب الخشبي العتيق، فُتح الباب ليكشف ممرًا ضيقًا أفضى بهما

إلى فناء واسع تحيط به أعمدة رخامية بيضاء، وجدران من زليج أخضر وفي المنتصف كان حوض ماء جارية تتلألأ بفعل ضوء النهار، كان يتأمل المنزل المكون من طابقين ورائحة شجرة الليمون تبعث من المدخل إلى أحد الأروقة، سألته وهي تسير باتجاه إحدى الغرف:

- هل ستقف عندك طوال الوقت؟

- في الحقيقة لم أرى منزل بهذا الجمال من قبل.

- كل بيوت الأندلس كانت على هذا الشكل، اخلع نعليك واستلق في تلك الغرفة حتى أعد الطعام، ستجد في الخزانة ملابس نظيفة إن أردت تبديل ملابسك.

تابع خطواتها البطيئة تصحبها صوت عصاها فوق الأرضية الرخامية، اختفت داخل غرفة المطبخ، وذهب هو إلى الغرفة التي أشارت إليها، كان يتوسطها فراش صغير يبدو أنه لم يُلمس منذ زمن، رغم ذلك كان المكان مرتبًا ونظيفًا، والخزانة الخشبية القديمة تشي بأن صانعها نجار ماهر، نحت على بابها ورود متشابكة، تفحصها متحسسًا جمال صنعتها ثم فتحها ليجد على أرففها ملابس مطوية بعناية، الأمر زاد حيرته ظلَّ واقفًا أمام الخزانة ثم نقل بصره إلى خارج الغرفة عبر النافذة المطلة على الفناء، اختار قميصًا من الكتان الأسود وبنطالًا من نفس اللون، وحين هم بخلع ملابسه نفذ

إلى أنفه رائحة عرقه، رفع ذراعه وتشمم أبطه مشمئزًا، كان عليه الاستحمام من عناء رحلته وكذلك فعل بعد سؤالها عن مكان الحمام.

***

كسكس بالخضر ولحم ضأن وجبة لم يذق مثلها من قبل، انهمك في تناول وجبته الدسمة وهي تسرد عليه مكونات الوصفة، وكيف أن القشتاليين يمنعون مثل هذه الأكلات، ولكنها لا تأبه بهم ماذا سيفعلون لها؟ سيقتلونها! تنتظر الموت منذ سنوات ولم يعتب باب دارها، ذهب ابنها إلى غرناطة ولم يعد وبعدها ارتحل إلى المغرب وانقطعت أخباره، وابنتها سارة تزوجت من تاجر إشبيلي وصار لديها بنتين، آخر رسالة وصلتها منهم منذ عام، كانوا يحثونها على الذهاب إلى إشبيلية ولكنها رفضت ترك منزلها ومدينتها، شارفت على منتصف العقد السابع من عمرها ولا زالت تصر على أن هناك جيشا سيأتي لنجدة أهل الأندلس المغصوبين على أمرهم، كذلك فعل المرابطون منذ زمن بعيد جاؤوا بإبلهم من المغرب لينقذوا البلاد والعباد، ومن بعدهم كان الموحدون وانتصارهم العظيم في الأرك ولكن سُرعان ما عوقبوا في معركة العقاب، كانت تحفظ التاريخ جيدًا، وكأنما ذاكرة الأرض اتخذت من رأسها موطنًا لها، الحديث معها

ممتع كانت تضحكه بنوادر عن القشتالين وغبائهم أمام حيل الموريسكيين، كلماتها فيض من حنان جرف وجدانه، في المساء ودعته لتدلف إلى غرفتها، بينما بقى في الفناء وحيدًا مع قنديل زيت يتأرجح بفعل هواء خريف يودع الأنحاء.

استضافتها له أمر غريب ولكن الأمر كان جليًا، إنها وحيدة مثله بحاجة لتحكي وتفرغ ما بجوفها من هموم، لم تطلب منه أن يحكي أي شيء عنه فقط كانت تتكلم وتتكلم وكأنها وجدت ضالتها فيه، عجيبة تلك المرأة زرعت بداخله شعورًا بالأمل والألم، لم يطق الوحدة فكيف كانت حياتها طوال تلك الفترة، يخشاها أهل الحي ولا يعيرها الديوان أي اهتمام، يتهمونها بالسحر والهرطقة والجنون، ربما ينتظرون موتها ليصادروا ذلك المنزل، بينما كان الهدوء يعمر المكان وسانشو يركض في غابات أفكاره سمع شيئا ما، همسا قادما من اتجاه غرفتها، أرهف السمع وسار على أطراف أصابعه، وكلما اقترب بدى الصوت أوضح، كانت جالسة على فراشها وعلى ضوء مصباح شحيح كانت تدس عينيها في كتاب بين يديها، تقرأ وتمرر أصابعها على الكلمات التي تتحسسها بشغف، أسند ظهره إلى الجدار وظل يستمع للآيات وعقله يعيد عليه كيف كان سعد القرطبي يقرأ ويعلمه حتى غفى.

مع شروق الشمس فتح عيناه على صوت جلبه، أواني

نحاسية ارتطمت ببعضها مصدرة صوتا أقلق منامه، كانت سُمية منهمكة بفعل شيء ما، لم توقظه حين وجدته نائما على الأرض فقط دثرته بغطاء صوفي ليقيه طَلَّ الصبح البارد، نهض متثائبًا يفرك عيناه، لم ينعم بالنوم هكذا منذ فترة رغم أن الأرضية الرخامية أوجعت جسده إلا أنه خلد لنوم عميق، رأته يلملم الغطاء فحدثته من مكانها ضاحكة:

- يبدو أنك لا تحب النوم على فراش ناعم.

ابتسامة ناعسة حلت على وجهه بينما كان يسير باتجاه الغرفة حاملا الغطاء:

- اعتدت النوم على الأرضيات الصلبة من خشب المراكب وحصى الكهوف كما أنني لم أحظ بغفوة هانئة على صوت هادئ.

خرجت من مطبخها حاملة أطباقا راحت ترصها على المائدة الصغيرة في ركن الفناء، هرع لمساعدتها وأصر على أن تجلس هي بينما أخذ ينقل أطباق الزيتون والعسل والزيت، خبز طازج أخبرته انها تعجنه بنفسها، تخشى أن تأكل من ذلك الخبز من الفرن، يتمتمون عليه بكلمات من الإنجيل ويرسمون الصليب فوقه، تناولا الفطور دون أن يحدثا وحين انتهيا سألته عما ينوي فعله لاحقا، ظل صامت لبرهة يمضغ آخر اللقيمات وما إن ابتلعها حتى قال:

- أنا هائم في الأرض، أعمل حين أريد تدبر نفقات الترحال، أفضل التجوال في القرى والبلدات الصغيرة وبطليوس هذه عامرة وأخشى أن أبقى هنا فتبتلعني المدينة ولا أخرج منها.

- لماذا لم ترحل إلى الجانب الآخر.. إلى المغرب والملوك السعديين.

- كان لديَّ صديق قرطبي نصحني بذلك ولكنه لم يفعل بالمثل، رأى في الهروب بعيدًا عن الأندلس خيانة لتاريخ طويل ومجد تطمس معالمه.

- كان محقا، ستبعث الأندلس من جديد في النفوس.. حتى وإن طال الزمن سيذكرها الناس وسيذكر كيف كنا سادة العالم ولدينا من صنوف العلم ما عجزت عن حفظه الأمم الأخرى.

- حال أهلنا في البلدات والقرى التي زرتها لا توحي بذلك، إنهم خائفون يرتعدون من القساوسة وديوان التفتيش، وكثير منهم ارتضى بأن يكون خادمًا يحرث ويزرع أراضي النبلاء.

- يحبون الدنيا يا سانشو.. يرجون أملًا لا يفارق صدورهم، هل كشفت عن مكنون وجدانهم؟! من استطاع الرحيل ظفر بحياة جديدة له ولسلالته من بعده، ومن بقي ينتظر فرجا

وفتحا جديدا قد لا يأتِ.. فكل نهاية تقترن ببداية لشيء ما، أتدري ما زلت أذكر حديث والدي الدائم عن غرناطة وسقوطها المدوي، على كل حال كانت يتيمة كثمرة وحيدة بشجرة عطشة لا تستطيع جذورها الوصول إلى المياه بجوف الأرض، ولم يكن أبو عبد الله الصغير سوى شخصٍ حَمل وزر من سبقوه من الملوك المتواطئين، ولكن بينما كانت غرناطة لا زالت تؤذن كنا نحن كمدجنين نعامل معاملة حسنة إلى حد ما، حتى صمت الآذان وتبدلت الأحوال ونكث الملكان فرناندو وإيزابيلا بعهودهما وكل المواثيق.. نحن باقون يا سانشو، ما زالت بيوت بطليوس تحتفظ بنسخ من تلك الرسالة التي بعث بها المتوكل بن الأفطس لألفونسو.. ما زالنا نفتخر بما قاله رغم مرور عقود.

بدى على وجهها مسحة من حزن وحمل صوتها قبسًا من شجن وهي تستطرد:

ما زلت أحفظ ما ورد بتلك الرسالة وأتخيل كيف كان المتوكل جالسًا على عرشه بين حاشيته ليملي على كاتبه ورسول الملك القشتالي تلك الكلمات الخالدة بفخر وعزة: «وصل إلينا من عظيم الروم كِتابٌ مدّعٍ في المقادير وأحكام العزيز القدير، يرعد ويبرق، ويجمع تارة ثم يفرق، ويُهدد بجنوده المتوافرة وأحواله المتظاهرة، ولو علِم أن لله جنودًا

أعز بهم الإسلام، وأظهرَ بهم دين نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون، بالتقوى يعرفون، وبالتوبة يتضرعون، ولئن لَمعَت من خلف الروم بارِقة فبإذن الله، ولِيعلَم المؤمنين وليُميّز الله الخبيث من الطيب ويعلم المنافقين، أما تعييرُكَ للمسلمين فيما وهى من أحوالِهم، فبالذنوب المركومة.. ولو اتّفقت كلِمتُنا مع سائِرنا من الأملاك لعلِمت أي مُصابٍ أذقناك، كما كانت آباؤك تتجرعه.

وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك لما أجبر أجدادك على دفع الجزية حتى أهدى جدك أحد بناته إليه، أما نحن إن قلت أعدادنا وعدم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحرٌ نخوضهُ ولا صعبٌ نرودهُ، ليس بيننا وبينك إلا السيوف تشهدُ بحدِّها رِقاب قومِك، وجلادٌ تُبصِرهُ في ليلكَ ونهارك.وبالله وملائكته المسومين نتقوى عليك ونستعين ليس لنا سوى الله مطلب، ولا لنا إلى غيره مهرب، وما تتربصون بنا إلا إحدى الحسنيين نصر عليكم فيا لها من نعمة ومنة، أو شهادة في سبيل الله فيا لها من جنة، وفي الله العوض مما به هددت وفرج يفرج بما نددت ويقطع بما أعدد".. كانوا رجالًا يا سانشو وملوكًا أشداء ولكن الفرقة دبت بينهم حتى أتى ابن تاشفين واستطاع أن يوحد الأندلس من جديد.. نحن بحاجة لملك نسير خلفه وعلى

الأندلسيين أن ينتفضوا جميعًا وإلا سيذهب ريحنا.

- هكذا كنا إذن..

- بل أكثر يا صغيري، بنينا مجريط -مدريد- وعبرنا جبال البرانية بالعلم والنور، في زمننا كانت قرطبة درة بهية يقصدها طلبة العلم من أصقاع المعمورة، وإشبيلية الفاتنة منارة للفنون والجمال، وجيان شجرة تفاح وافرة الحلاوة كعذراء زاهرة دومًا، وفي طليطلة الخيل المسومة ومسابك الدروع وصانعي السيوف، في البدء جاءها طريف بن مالك، ومن بعده طارق بن زياد فاتح الثغور، كانت حلم موسى بن نصير وحققه صقر قريش المحلق في سماء الجزيرة بجناحيه، مهيب يخشاه عَجم الإفرنج ويبجله خليفة بني العباس، وناصر، ومنصور، ومجاهد العامري، وابن تاشفين، وأبو يعقوب، والرجل الأخير بغرناطة موسى بن أبي غسان. كل هؤلاء ذكرهم التاريخ وسيذكرهم ما دام هناك على هذه الأرض حياة، ولكن هناك أيضا من لم يذكرهم التاريخ رغم أنهم غيروا مجراه، وكانوا الأداة الحقيقية لهؤلاء الملوك والسلاطين والخلفاء، نحن العامة من الناس من يجب علينا الحفاظ على هويتنا وأصلنا، أن نذكر الناس بمن نحن حتى لو بقى منا شخص واحد على هذه الأرض، وحينها سيبرز رجل يأخذ كل المجد وحده، وإن كان جيدا كفاية لن يضيع

من بعده الناس مرة أخرى، لا بُدَّ لنا من عودة هكذا هو الزمن يوم لك وأيام عليك، وتلك الديار التي جئت أنت منها لم تكن يوما أرضًا برتغالية، كانت شنترين وشنترة وقلميرية والأشبونة، الشيء الذي تبحث عنه بداخلك، فقط يحتاج أن تنفض عنه غبار سنين من الوحدة، ابحث عن فتاة وتزوج وأنجب طفلًا يعيش متذكرا إياك، ربه على ما تعلمته أنت من الزمن وصاحباك اللذين ذكرت اسميهما؟

- سعد القرطبي –دي بلاسيوس– والإنكا دي لافيجا.

- إنهما مثلك وربما كان لقائك بهما من تقدير الله، نلتقي في هذه الدنيا لسبب ما.. أنت نقي يا سانشو.. أستطيع رؤية ما بداخل الناس، سنوات من الوحدة والصمت ومراقبة الحياة كافية لأن أعرف مكنون صدرك، سيكون لك شأن ذات يوم وربما يدوم ذكرك لسنين، اختلط بالناس وعش وقابل هذا وتعلم من التجارب، وأضف رونقا خاصا على حضورك، امنح الأمل وازرع البسمة وأظنك هكذا رغم ما تظهر من وقار، لا تخشى لومة لائم وعامل بالإحسان وأحذر أن يوقع بك ديوان التفتيش.

كلمتها الأخيرة جعلته يضحك، حتى ظهرت نواجذه، تعجبت من فعله وعقدت حاجبيها الأشيبين، انتظرته حتى هدأ وقالت:

- ما الذي يضحك في حديثي؟

وضع يده على صدره وابدى على وجهه بعض الجدية:

- اعتذر عن ردة فعلي.. أنتِ تحدثين شخصًا قضى ريعان عمره أسيرًا داخل ديوان التفتيش، ورأيت ما يكفي لأن ابتعد عن دربهم.. وأعي تماما خطورتهم.

- لا يصح أبدًا أن تسير حاملًا القرآن بين طيات ملابسك هكذا طوال الوقت.

تعجب من قولها، هل قامت بالتجسس عليه أم أنها فتشت أغراضه وهو نائم، شَرد بوادي سحيق جباله من التخيلات والأفكار حتى أنقذته قائلة:

- عيون الديوان غادرة، إنهم حولنا في كل مكان، يترصدون حياتنا لا تأمن لأي شخص.

- لماذا فعلتِ ووثقتِ بي؟!

- هل أعيد عليك ما قلته من قبل، سانشو لا تتظاهر بالحماقة، تذكرني بابني في بداية عمره، اسمع تعال لنخرج ونكمل حديثنا بينما أعرفك كيف أمست بطليوس وكيف أصبحت.

خرج معها وتوجها إلى حيث اعتادت الذهاب يوميًا طوال

حياتها، فرن أجدادها الذي صار ملك لنبيل قشتالي، الحزن كان جليًا على تجاعيد وجهها التي حفرها الزمن، أخذته في جولة عبر أرجاء المدينة تحدثا بالقشتالية طوال الوقت حتى لا يلفتا الانتباه، وحين كان على سانشو زيارة الإسطبل لرؤية جواده أصرت على الولوج معه، تعرف أحد العمال الموريسكيين أوصته أن يعتني بالحصان الأندلسي القوي، جماله ورشاقته ومتانة بنيانه تعطي له قدر من الهيبة، ويبدو أن ثمنه باهظ، لم تسأل كيف حصل عليه ربما كان يخص دونا أو أميرا، لم تدم حيرتها كثيرًا، فقد قص سانشو على مسامعها حكاية تلك الليلة التي فقد فيها أغراضه بالماخور، وكيف هرب من لشبونة على ظهر ذلك الأصيل، وبينما كانا يسيران باتجاه الساحة سألته:

- لماذا بقيت في الأندلس ولم تذهب للعالم الجديد؟ ألم تقل أنك بحار وأن البحر هو ملاذك!

- شيء ما يجذبني إلى هذه الأرض رغم أنها لم تمنحنِ سوى الذكريات السيئة.

- سانشو إن طلبت منك شيئا لأجلي.. هل تفعل؟

- هذا يتوقف على الطلب.

- وصية أخيرة.

- هل تعتقدين أني جدير بهذه الثقة وحمل وصيتك الأخيرة أيًا كانت؟!

- لم يعد في العمر أكثر مما مضى.. وإنه ليشق عليَّ ترك هذه الدنيا ولم أرَ قومنا ينتصرون ويعود مجدهم التليد مرة أخرى، وتلك داري ستؤول في نهاية الأمر للقشتاليين.

- في حديثنا السابق كنت نبعًا للأمل، ما الذي تبدل لتقولي هذا؟!

- هناك فرق بين الأمنيات وبث بذور الأمل والواقع، وهذا الأخير يحتم عليَّ أن أنظر للأمور بشكل أكثر جدية، بيوت بطليوس العربية والبربرية إما انصهرت بداخل الحياة، أو رحلت عن تلك الأرض، نسيوا وتناسوا ولم يعد لهم من الذكرى سوى القليل.. ولكن هناك أناس ما زالوا يعملون على قضيتنا يا سانشو.. لا زال هناك رجال ونساء يهتمون لأمر الموريسكيين وعقيدتنا في إشبيلية وغرناطة ومالقة وحتى بلنسية وشاطبة وأراغون هناك تجمعات لفئات موريسكية نبيلة ترعى شؤون غيرهم، ولا نعلم ما الذي سيحدث غدا فكما ترى خناق ديوان التفتيش يضيق أكثر حول رقابنا، يقولون أن العثمانيين يذيقون إسبانيا الويل في البحر وأن ملوك السعديين يجابهون البرتغاليون على طول الساحل.

- لا أفهم ما علاقة كل هذا بوصيتك.

- تعلم الصبر قليلاً يا سانشو.. وصيتي ألا تترك هذه الأرض حتى يكون لك أثر، لا ترحل عن هذه الدنيا إلا وقد أديت ما عليك، لقد خلقت وكبرت ورأيت ما رأيت لسبب والآن حان دورك.

توقف عن المسير وتلفت حوله، الدرب الضيق خاوٍ إلا منهما، وعصفور تعلق بطرف شرفة يراقبهما بصمت، همس إليها بالعربية:

- أي دور هذا لم أعد أفهم أحجيتك هذه.

- هيا لنعد للدار وسأطلعك على سر عظيم أود منك حفظه والعمل لأجله.

قَلق عقله وقلبه وجل، وهذه المرأة لا تكف عن إبهاره، أخذته لغرفة الخزين الخاوية إلا من خزانة كبيرة فارغة، أشارت له بأن يزيحها جانبًا.. فعل وبدت خفيفة بالمقارنة بحجمها وظهرت فجوة كبيرة في الأرض، لا يعرف لما عليه أن ينصاع لها بالكاد تعرفه وتريد منه أن يحفظ سرها، الفضول هو ما يحركه وتجربة معرفة أناس جدد تستحق المخاطرة، نزلت إلى الفجوة حاملة بيدها شمعة كبيرة، تبعها بخطوات متحسسة الأرضية الرخامية ثم وقف مشدوها وقد تبدد الظلام بفعل ضوء قنديل أحييته بشمعتها، أرفف

خشبية قديمة تحوي كثير من المخطوطات الأصلية، مجلدات وكتب ومطويات ورقية وبيوت لعائلة عناكب تتحاشى الضوء ركضًا إلى ظلال الأركان، كانت تقف على مقربة منه تراقب تلك النظرة واللمعة التي ملأت عيناه، لمس الأرفف مزيحًا الغبار عن أطراف الكتب، سحب أحد المجلدات برفق وأخذ يطالع الغلاف الجلدي المدبوغ ثم أخذ يفر الصفحات الصفراء، كتابة عربية يستطيع تميزها، ابتسم فقالت له:

- هذا ما لم يفلح أفونسو البرتغالي في أخذه وما حاول ألفونسو التاسع ملك ليون الحصول عليه، في هذه المكتبة كل كتاب كُتب في بطليوس وأنحائها، شعر وأدب وفقه وحوادث وأخبار، لقد حفظنا علوم اليونان القديمة وروما بل وزدنا عليه، أكملنا درب العلم وصنعنا ما عجز عنه غيرنا، ذلك تاريخنا حفظه أجدادي منذ سقطت المدينة وتوارثنا ذلك عبر أجيال.. والآن حان الوقت ليحمل أحدهم على عاتقه مهمة الحفاظ على هذا الكنز.

- لا أعرف ما عليّ قوله!

اغرورقت عيناها بالدمع:

- اعتنيت بهذه الكتب كثيرًا، وكل خوفي أن أعيش لأرى ما ورثته يُحرق ويحال إلى رماد، كتبنا هي إرث أمة مجيدة

إن فقدناها أصبحنا بلا هوية، نهيم في الأرض كما الدواب لا علم لنا بماضينا ولا ندري إلى أين يحملنا الحاضر، رحل ولدي وتزوجت ابنتي وصار لي أحفاد، ولكنهم تفرقوا ولم يبقَ أحد سواي، أشعر أن النهاية تقترب. والله وحده من أرسلك لي يا بني. لا أفرض عليك شيئا ويبقى الاختيار لك.

رحلت عن القبو تاركة إياه، احتضنته هالة من وهج بثها القنديل القابع على الأرض بجواره، كبح الظلام وأسكنه الأركان الكئيبة، ظلَّ واقفًا لوقت طويل يحملق في المكتبة والكتاب بيده، ثم جلس وأسند ظهره لأحد الأعمدة القريبة، أخذ يقلب الصفحات بين يديه ثم نقل بصره للأرفف مرة أخرى، ضحك لأن عقله لم يجد شيئًا يفكر به، شَعر بالخواء رغم زحمة الأفكار.. كان منهكا ولا يستطيع التفكير، عليه اتخاذ قرار لا يعرف ما سيحدث بعده، الرحيل أو البقاء.. ماذا بعدهما؟ وكيف ستكون الحياة بعد تلك النقطة؟ نعيش وتمضي بنا الأيام، نسير للمجهول حتى لو رتبنا كل شيء، رتب سعد أمر هربهما ومات، وأخبره الإنكا بضرورة الحرية فلم يعِ مفهومها.. ماذا عليه أن يفعل وقد صار الاختيار له مرة أخرى؟!

***

ليال الشتاء الطويلة كافية بأن تمنحك ذلك الشعور بدنو

الأجل يجعلك تفكر كثيرًا، ينهار سدّ الذكريات فجأة وتحن إلى نسائم الماضي، شاب البنيان وصارت خطواتنا أبطأ، فقدنا ورحل عنا كل من أحببناهم يوما وأحبونا، وكذلك سنمضى لعلنا نلتقي بهم مرة أخرى في مكان وزمان آخر، تبدو الحياة طويلة ونهر الذكريات لا مصب له، يسري ببطء، وتروي دموعي الاشتياق لرائحة طعام أمي، وتجمعنا حول المائدة مع أبي، وخطبة بنات الحي تباعًا، ومراسم زفاف سرية يعمها بهجة وغبطة وافرة، حكايات الجيران والأصحاب والأهل الذين اختفوا رويدا... عاشت وحيدة لعقدين ونصف وأيام متشابهات، ثم وجدها ذلك الشاب المثقل بالهم والبؤس، شهر وتسعة أيام قضاها سانشو برفقة سُمية التي سعت لاستخراج أوراق خاصة به، ادعت أنه ابن أخت لها تسكن لشبونة، وأنه بحار جاب العالم الجديد بصحبة أشهر البحارة والمغامرين، ومعظم وقتهما كانا يقضيانه في التجول والحديث عن كل شيء حتى جاء يوم أحست فيه بالتعب، لا تستطيع مواصلة المشي كثيرًا ومضاهاة شبابه، آلام بعظام فخذها جعلتها تبقى بالمنزل ليومين، عمل على رعايتها ووجعها يشتد، وقصصها لا تتوقف، أخبرته عن طفولتها وخروجها مع أهلها للتنزه خارج المدينة فوق تلة المسجد القديم، حيث التقت زوجها لأول مرة كان اسمه مانويل جونزاليس أو -إسماعيل بن الأفطس-

كما أحب أن ينادى، سليل عائلة حكمت بطليوس ذات يوم، مات قهرًا متمنيًا أن يعود ابنهما، ولكن لو عاد الولد ووجد أن أصول ومنازل وحوانيت والده تمت مصادرتها، لربما مات قهرًا هو الآخر، انقطعت أخباره عنها منذ زمن، ولم يعد أحد يودها سوى ابنتها وحفيداتها، حين جاؤوا لزيارتها كانوا صغار، "آنا" هي الكبرى و"أوفيليا" الصغرى، لهما أسماء عربية ولكنهن فضلا تلك الأسماء القشتالية، وأمهما سارة لطالما راسلتها، لو كان الأمر بيدها لرحلت إليهم وسكنت إشبيلية ولكن على بيتها ومفتاحه النحاسي ألا يكون ملكا لقشتالة، لطالما ظنت أنه الحصن الأخير بعدما سقطت غرناطة، أخبرتها ابنتها في إحدى الرسائل أنهم قاموا بعمل مجموعة تقوم على شؤون الموريسكيين، تقدم لهم الرعاية الصحية وتدبر أمورهم مع الحكام، ولكن ذلك الملك فيليب مجنون كجدته، لا أحد يتوقع ما سيفعله، يخوض حروبًا في الشمال مع مسيحيين، ويقارع العثمانيين والسعديين، تتوسع إمبراطوريته ويزداد طغيانه هو ورجاله، وكلما ذاق هزيمة أو تجرع مذلة يصب غضبه على الموريسكيين ومن بقي من يهود السفارديم، سيتبدل الحال يا سانشو.. حتما سيتبدل وإن لم يتبدل فعلى أحدهم أن يأخذ المبادرة.

تلك كانت آخر كلماتها في تلك الليلة الماطرة، دثرها في الفراش وذهب إلى غرفته، حدث نفسه بأنها قوية، وما تلك

إلا وعكة وستمر لحالها، في غضون أيام تعلم منها الكثير، حاول طمأنة نفسه وخلد لنوم عميق، استيقظ وقد انتصف النهار، الشمس مستقرة في سقف الفناء الأزرق، لم توقظه كما اعتادت والسكون يهيمن على أرجاء البيت، بخطى ثقيلة توجه لغرفتها مناديًا:

- خالتي..

أجابه الصمت، طرق الباب ثلاث وحين لم تجبه دلف... الغرفة خاوية والفراش مرتب، أين اختفت؟ وحين هم بالخروج لمح المفتاح النحاسي وسرتين من القماش المخملي إحداهما نُسج عليه اسمه بخيوط صفراء –سانشو-، اقترب وظل يحدق فيما تركته، ثم مد يده والتقط المفتاح يقلبه بأصابع مرتجفه، السُرتين كانتا تحتويان على كثير من القطع الفضية والنحاسية هكذا بدت حين تحسسهما... ليومين ظل يبحث عنها دون جدوى والحزن يهيمن على وجدانه، البرد يشتد والمطر لا يتوقف وهي ذابت ولم يعد لها أثر، وفي اليوم الثالث سمع تلك الحكاية في السوق، عن القديسة التي افتدت بروحها رضيعا كادت أن تفتك به صاعقة، بدى الأمر غريبًا أخذ يسأل حتى وصل لمصدر الحكاية رجل ثرثار بالسوق، توجه على الفور لسؤاله عما حدث، فأخبره:

- كالعادة فتاة مستهترة ألقت برضيعها على قارعة الطريق،

ما ذنب الصغار أن يأتوا لهذه الدنيا ليجدوا أنفسهم ملكا لأمهات تستغنى عنهم، لذة الخطيئة يا ولدي هي ما تحت النفس على الاستمرار، لا قلب لهن، ولا يفكرن سوى بالمال.. لماذا تبقيه في بطنك تسعة أشهر لتتخلي عنه؟ أمرهم عجيب ولكن القدر شاء أن يكون ذلك الرضيع شاهدًا على التضحية التي قامت بها تلك المرأة العجوزة، الفجر جاءً متأخرًا في ذلك الصباح والمطر لم يتوقف، كذلك الصبي لم يكف عن الصراخ والبكاء، يا لقساة القلوب... لم يكن القس بيدرو بالكنيسة في ذلك اليوم، وكان عليَّ أنا وزوجتي مراقبة المكان ريثما يعود، وقد رأتها زوجتي تأتي من اتجاه المدينة متكأة على عصاها، في البداية ظننت أنها شبح أو شيء من هذا القبيل، ولكن ما إن حملت المرأة الصبي كف عن البكاء ولما ابتعدت عن الحائط ضربه البرق، تهدم الجدار ونجت المرأة والطفل... إنها قديسة، أخبرت القس بتلك الحكاية وأكد لي أنها قديسة، أجلستها زوجتي تحت عريشة لتقيها من المطر، ولكن روحها غادرت فور جلوسها أمام منزلنا وذلك الرضيع بين يديها هادئًا يبتسم.. إنه ملاك سنعمل أنا وزوجتي على رعايته، وستدفع الأسقفية لنا قدر من المال اسميناه أنخيل، كما أنني سأنحت تمثال لتلك القديسة لوضعه على قبرها.

- أين دفنت؟

- صلينا عليها بالكنيسة الصغيرة بالقرب من منزلي خارج المدينة، ودفنت في الباحة الخلفية للكنيس.

- هل تأخذني إلى هناك؟؟

- هل كنت تعرفها؟

أخرج سانشو من جيبه قطعة نقود نحاسية وحدث الرجل بجدية:

- أود التأكد من ذلك..

جذب النحات الثرثار العملة من يد سانشو مبتسمًا:

- لك الحق يا رجل.

اتخذا طريقهما إلى خارج المدينة، طريق طويل يستحيل أن تكون تلك العجوز قد قطعته بصحبة عصاها تحت المطر، ارتقيا دربًا يصعد إلى تلة محاطة بالأشجار ومن بينها يبرز برج أجراس قديم، مع اقترابهما بدت التفاصيل تتجلى، كانت صومعة موحدية عتيقة الطراز إلى جوار مبنى كنسي علّق على بابه صليب خشبي كبير، الفناء الأمامي محاط بسياج خشبية، وبين الأشجار القريبة منزل أندلسي صغير أشار له الرجل قائلًا:

- هذا منزلي، تستطيع من نافذته أن ترى الأرجاء كلها، حتى

بطليوس تبدو جلية من هنا بأسوارها وقلعتها، يقولون أن هذه الكنيسة كانت بالأصل معبد للموريسكيين؛ أما بيتي فكانت تحاك حوله الحكايات عن جني يسكنه، يبحث كل ليلة عن أميرة مسلمة كانت تعيش هنا ذات يوم ولكنها رحلت مع الراحلين من بطليوس.. لا أصدق تلك الحكايات بالطبع ولكن للمكان هنا سكون عجيب وحين يمر الهواء بين الأشجار تشعر وكأن أحدهم يتنفس، هذا هو الجدار المتهدم جراء البرق، مشت بهذا الاتجاه حاملة الطفل نحو منزلنا لتمنحنا الأمل.

في الفناء الخلفي تناثرت شواهد القبور الرخامية المحفور عليها باللاتينية، يدفن هنا المساكين ومن لا أقارب لهم، أناس كانت لهم من الحياة نصيب، شَعر برجفة تسري بعروقه والرجل يشير إلى الشاهد الكبير:

- دفنت هنا عند قطعة الرخام الأبيض الكبيرة هذه، والتي تم نقلها للمكان ليتم نحتها تخليدًا لذكرى القديسة المجهولة، صلى عليها الأب بيدرو ثم أنزلنا التابوت، كل مقتنياتها كانت معها حتى عصاها، اعترض أحد الشماسين على دفنها هنا متعللًا بأنها من أصل موريسكي، ولكن القس أصر على ذلك ففي النهاية كلنا بشر.. سواء كانت موريسكية أم مسيحية قديمة فقد أنقذت روح ملاك من الموت.

كان يعلم في قرارة نفسه أنها هي، يقين بداخله هيمن على وجدانه، ذرف الدمع وخفض رأسه مغمغما بالعربية:

- لم يكن عليكِ المغادرة الآن.

انتبه الرجل لكلمات سانشو فسأله:

- ماذا قلت؟

أجابه سانشو بالإسبانية دون أن يلتفت إليه:

- كان اسمها إستيرا دي مانويل، مؤمنة حقيقية تهب الحياة دون مقابل.

تمتم الرجل مرددًا:

- سانتا إستيرا.. ليبارك الرب عملك وروحك.

مسح سانشو خيط الدمع عن وجنتيه، وأخذ شهيق عميق ليملأ صدره بالهواء البارد، ثم التفت إلى الرجل محدثا إياه:

- عليك أن تخلد ذكراها ما حييت.. لقد وهبتك طفلًا وحياة جديدة.

توقف عن الكلام وأخرج قطعة نقود أخرى من جيبه، ومنحها للرجل مستطردًا:

- أريد منك أن تكتب على شاهد القبر تلك الكلمات "من

الموت تنبت ألف حياة"... ولا تنسى أن تضيف مع اسمها رمز صغير يدل على أنها موريسكية..

فغر الرجل فاه قبل أن يقول:

- لا أستطيع فعل هذا...

- أظن عليك تقليد أي رسم أو زخرفة كتلك التي على واجهة برج الأجراس، سيكون هذا رائعًا.

غادر سانشو بعد أن أخذ حفنة من التراب ونثرها فوق القبر، تلى في سره بعض الآيات وهو يمضي مبتعدًا، وقلبه يَقطر حزنا، الأسابيع التي قضاها معها كانت كافية لأن يشعر بالفقد، عاد وحيدا مرة أخرى إلى المنزل الخاوي -إلا من عطرها- يضيق أكثر عليه، في الأيام الأولى خشى أن يتجول ويرى بقية الغرف، ولكنه وجد في اكتشاف البيت شيء يلهيه عن الحزن، كان يسأل نفسه أكلما اقترب من أحد يفقده، الحياة قاسية للغاية ووصية سُمية قيدته بالبيت، ما زالت تحتفظ بملابس زوجها وصناديق خشبية ممتلئة عن أخرها بالأقمشة، والحلى يدوية الصنع، جلس كثيرًا في القبو يقرأ، وما تركته هي من خزين ينفذ، عليه أن يجد عمل في هذه المدينة التي أصبح لا يطيق التواجد بها، ليس هناك أسوأ من أن تكون وحيدًا في عالم لا تعرف فيه أحدا، بين طيات أوراقها وجد وثيقة امتلاك المنزل مكتوبة بالعربية

والقشتالية، التاريخ قديم للغاية، وجد أيضًا وثيقة لمنزل صغير على الربوة الغربية بجوار المسجد الموحدي، حيث دفنت مع ذكرياتها على تلك التلة، على ورقة أخرى كُتب عليها عنوان ابنتها في إشبيلية، ورسائل عدة من حفيداتها يقصان تفاصيل قصيرة عن حياتهما، آنا وأوفيليا سيكون عليه أخبارهم بالأمر... قرأ كل رسائلهن ورسم بعقله تفاصيل غير دقيقة عن ملامحهما المتخيلة.

ذات صباح استيقظ على صوت طرقات عنيفة، فتح الباب متوجسًا ليجد أمامه ثلة من الجند وقس مبتسم، حدق فيهم سانشو مستغربًا، والراهب يحدثه:

- أليس هذا منزل السيدة إستيرا دي مانويل.

- نعم هو كذلك.

أزاح أحد الجنود سانشو جانبًا ليلصقه بالحائط؛ بينما دلف القس ومن خلفه الجند، انتشروا في أرجاء المنزل أمام نظراته المتوجسة، سألهم:

- هل تبحثون عن شيء؟!

لم يجبه أحد، نظرات الجندي المثبت إياه كانت صارمة وكافية ليصمت، مضى بعض الوقت قبل أن يعود الجند إلى حيث يقف القس، همسات خافتة دارت بينهم قبل أن

ينفضوا خارجين، في تلك اللحظة تركه الجندي، والقس يسأله:

- لماذا لم تبلغ عن موت خالتك؟؟ أو لست ابن أختها من لشبونة؟

- كنت سأفعل ولكن الحزن ألجمني.

- ولكن النحات قال أنك دفعت له مالًا وفيرًا لينحت لها تمثالًا يمجد فعلها الطيب.

- نعم فعلت.. فقد كانت مسيحية مخلصة.

ابتسامة باهتة رسمت على وجه القس وهو يقترب منه أكثر:

- يبدو أنك لم تعرف خالتك جيدا.. إنها الوحيدة التي لم تكن تحضر قداس الأحد، كانت غريبة الأطوار ويخشاها الناس.. تغاضينا عنها لأنها كانت عجوز مسالمة، لم يتبقَ لها من الحياة شيء وربما لم تكن تؤمن بالمسيح.. هل أنت مثلها يا سيد سانشو؟!

- هل هذا تحقيق أم اتهام موجه ليّ؟

- إننا نتحدث فقط عن خالتك... هل ترى أنها تستحق أن تكون قديسة؟

- هذا ما يقوله الناس.. أو لم يصل إلى مسامعكم كيف كانت نهايتها وإنقاذها لطفل رمته أمه للموت، أو ليس هذا فعل نبيل أن يرسلها الرب رغم مرضها وشقائها إلى تلك التلة في هذه الليلة الممطرة لتمنح الرضيع حياتها؟!

رمقه القس بغضب واضح، تطلع في عيناه بتحد، وحدثه بصوت رخيم:

- لم تؤمن هذه المرأة يوما، لقد بقيت على دينها المحمدي.

- هل شققت عن صدرها لتعرف؟

- كانت تجهر بذلك في كثير من الأوقات، على كل حال ما زال ينتظرها محاكمة سيحدد الديوان موعدها قريبا.

- أي محاكمة وقد ماتت؟؟

لم يجبه القس حتى وصل إلى باب المنزل، استدار ليواجه سانشو مرة أخرى قائلا:

- سأنتظرك في مقر ديوان التفتيش بعد قداس الأحد سيد سانشو... علينا مناقشة بعض الأمور الخاصة بميرات خالتك.. أرجو أن تحضر مبكرًا فعظة الأحد ستكون مميزة للغاية.. أرجو ألا تنسى الموعد.

***

الحياة ليست سهلة على هذه الأرض، جاء الأحد سريعًا، الكاتدرائية ممتلئة بالناس، الشماسون يطوفون حاملين المباخر، والرهبان ينتشرون حول المذبح، والقس يتحدث بعصبية:

- القديس رودريك أحد شهداء قرطبة، قتله المتوحشون إبان حكمهم للأندلس، قطعوا رأسه كما فعلوا بالقديس يولوجيوس القرطبي الذي أعدم لتشجيعه شباب قرطبة بأن يعلنوا إيمانهم بالمسيح على الملأ، كذلك فعلوا بالقديسة لوركيتا التي ارتدت عن دينهم الوثني، لقد فعلوا أمورا بشعة والآن علينا أن نقيم العدل.. لن يحصل موريسكيٌّ على القداسة أبدًا، بل سنحاكم موتاهم على ما اقترفوه من آثام.. ومهما كان إيمانهم بالمسيح ظاهرًا، ليسوا سوى ذئاب يرتدون ثوب الحملان، توخوا الحذر وانتشروا لتلقنوهم تعاليم المسيح... لو كان الأمر بيدي لعمدتهم كل يوم حتى يتطهروا، ولكن مشيئة الرب أن نعاقب الكفار.

كانت الخطبة حماسية أعقبها تلاوة عذبة لعدة ترانيم، العجيب في الأمر أن بين الحضور كثير من الموريسكيين، سيكون عليهم إظهار مدى إخلاصهم وإبداء ولائهم، ظلَّ سانشو جالسًا حتى انفض الناس، بعضهم نهض ليشعل شموعا قرب المذبح متقربًا بالدعاء، عاد كثير منهم للأسواق

وإلى بيوتهم، أشار له جندي بالقرب من المدخل فنهض متثاقلًا، لم يمضِ كثير من الوقت حتى صار في غرفة القس الذي لم يأتِ بعد، بقى لبرهة يحدق في تمثال المسيح المصلوب حتى فُتح الباب، دلف القس وعلى وجهه ذات الابتسامة الباردة، استقر خلف منضدته سائلًا سانشو:

- من الجيد أنك حضرت مبكرًا سيد سانشو.. هل تشرب شيئا؟

- شكرا لك سيدي... ممتن لكرم ضيافتك.

- منذ رأيتك في ذلك اليوم وهناك سؤال واحد يلح بعقلي، ما الذي يدفع شاب مثلك لترك لشبونة والبحر والجو الغائم الرائع ليأتي إلى هنا؟ ويبدو أني وجدت إجابة منطقية فالموريسكيين لديهم عادات عائلية وتماسك جيد بجذورهم، اجلس لماذا تقف؟

جلس سانشو على مقعد قريب والقس يقلب بعض الأوراق أمامه مستطردا:

- للسيدة إستيرا ولد رحل منذ زمن إلى المغرب... وابنة هل تذكرني باسمها؟

- سارة.

- نعم هي هذه، تسكن إشبيلة، سيكون عليها أن تعرف بما حلَّ بوالدتها المسكينة، سترث المنزل إن أرادت وستحصل على وثيقة تثبت إرثها ذلك، ويبدو أن لا خيار لك من أخبارها سيد سانشو... وجودك هنا كان مرتبطًا بخالتك، والآن قد توفيت، ولا أرى سببًا وجيهًا لأن تمكث بمنزل ليس منزلك، الكنيسة ستكون رحيمة مع الراحلة ولن يُنبش قبرها إن أردت أنت ذلك ودفعت بالمقابل فدية عن الأمر.

- أنا لا أملك أي مال.

- ومن يتحدث عن المال.. أقصد أنك تستطيع أن تكري هذا المنزل للكنيسة ليكون مقرا لإيواء المساكين أو دار تعليم للراهبات فقط عليك أن توقع تلك الأوراق.

- عفوا سيدي ولكن ألم تقل أن الورثة من حقهم الحصول على ملكية المنزل.

- إشبيلية ساحرة ولا أحد يتركها ليأتي هنا.. وأظن أنك تملك الوثائق الخاصة بملكية المنزل، سنمنح السيدة سارة جزءًا من أجر الكراء وأنت تحصل على جزء ما رأيك بهذا؟!

- ماذا لو رفضت العرض؟

- لا شيء سيحدث.. فقط سيكون عليك إغلاق المنزل والمغادرة إلى إشبيلية، والعودة مع ابنة خالتك لتبت هي

في أمر منزل أمها، وربما توافق على بيع المنزل بالكامل وستكون أنت الخاسر الأكبر.. هناك طرق أخرى لجعلك توافق سيد سانشو، ولكني أثق في أنك ستختار الخيار الأنسب لنا جميعًا.

رحل عن المكان يجر قدماه، سيحصلون على المنزل في كل الأحوال، هكذا خلص به التفكير، وعليه أن يحاول وقف هذا الأمر، والطريقة الوحيدة لفعل هذا هو السفر لإشبيلية، وإخبار سارة بما حلَّ بوالدتها، أن تعود معه لتبث في أمر المنزل، وكنز أمها من الكتب والمخطوطات، هذه هو الحل الأسلم والأسهل، عاد للمنزل وظلَّ جالسًا بالفناء يفكر ويفكر حتى استقر على فعل شيء ما، كان عليه إخفاء القبو تمامًا، السرداب المؤدي إليه يجب أن يغلق على ما فيه من كتب، ولكن كيف يفعل هذا والعيون محيطة بالبيت؟... لأيام ظلَّ يفكر حتى اهتدى لتلك الخُطّة، جمع كل الأثاث الثمين ووضعه بالقبو، ثم أتى بخزانة ملابس كبيرة وقام بتحطيمها لسد الباب السري للقبو وبعدها وضع طبقة من طين وزليج قديم وجده في غرفة التخزين، لن يلحظ أحد تلك الرقعة في الأرضية بعد ذلك، كان العمل شاقًا ولكنه مثمر في النهاية، أعد كل شيء للرحيل، أغلق الغرف وودع فراش سُمية، لملم أغراضه وملابسه التي وهبتها له، وأغلق المنزل بعد وقفة طويلة بالفناء، دس المفتاح النحاسي في جيبه

واتجه إلى الاسطبل، ابتهج صديقه وصهل لرؤيته... اقترب منه وهمس في أذنه:

- اشتقت إلي أليس كذلك... ها قد عدت والآن علينا الرحيل مجددًا.. ولكن هذه المرة صوب إشبيلية.

***

2

هُن

إشبيلية صاخبة كلحن غجري يجبر السعادة لأن تدلف إلى قلبك، شوارعها وأزقتها زاهرة تظللها أغصان شجر البرتقال والأضالية، بنيانها عظيم، ومِئذنتها الموحدية تقف شامخة، تنظر لما يدنوها منها بترفع وعزة، رغم ما أصابها من تبديل، مدينة حية لها روح مبهجة، لا أحد يشيخ في دروبها المتشابكة، تستلقي على ضفة نهر الوادي الكبير كحسناء ذهبية المحيا، أندلسية واسعة العينين مكتحلة الجفنين تتنسم دفء شمس الشتاء الذي لم يرحل بعد، وردة حمراء ثبتت على يمين شعرها الأسود كليل المحيط حين يغيب القمر، كل شيء حوله كان جديرًا بأن يَسْلُبَ عقله، ووحدها من تعلق بها نظره ووجدانه، كان قد وصل إلى لمدينة قبل الظهيرة، وجاب طرقاتها وأسواقها العامرة، مرَّ بمتاجر الزيوت والحرير ورائحة الفواكة الطازجة تعمر الهواء، لم يتخيل أن تكون المدينة كبيرة إلى هذا الحد، بحث عن فندق يبيت فيه ليلته قبل أن يبدأ رحلته في البحث عن سارة وابنتيها.

كان النزل صغيرا، أندلسي الطراز جدرانه من الزليج كبيت

شُمية، منزل قديم اشتراه نبيل قشتالي وحوله إلى ذلك الفندق، مكان جيد ولكنه محاط بعيون رجال الديوان، يستطيع أن يعرفهم بمجرد النظر في أعينهم، حصل حصانه على مستقر له بحظيرة الفندق، وجبة من السمك المشوي خلد بعدها للنوم، وفي صباح اليوم التالي استيقظ مبكرًا ليبدأ رحلته، البحث عن إبرة في كومة قش كان أسهل من العثور عليهن، العنوان الذي بحوزته غادروه منذ عام، لا أحد من سكان الحي يعلم إلى أين ذهبوا، ولكن مزارعا عجوزا أخبره أن سارة وابنتيها انتقلن إلى منزل جديد بالقرب من ضفة الوادي الكبير، أعياه البحث فاستقر به الحال على شاطئ النهر الجاري وهكذا رآها، تجلس على صخرة مداعبة صفحة الماء بساقيها... تنثر الماء برقة شاردة النظر تبحر مع القوارب والسفن.

كانت لحظة سكون في يومه المرهق، لا يعلم ما الذي جذبه إليها، فقط أحب التواجد ومشاهدتها، فهي من ذلك النوع الذي إن رأيتها تضطرب ولا تعرف ما عليك فعله، اكتفى بالاسترخاء مستظلًا بنخلة مائلة وعيناه لا تفارقها، حديث شُمية عن الأسرة والزواج وتلك الأمور كان يدور بخلده، ولكنه جاء هنا لهدف واحد وبعدها سيرى إلى أين تقوده الحياة، المدينة خلابة كتلك الفتاة ربما هي روح إشبيلية تتجسد في ذات القوام البديع، نحيلة الخصر ترفل في ثوب

قرمزي على مهل وشعرها الأسود تلاعب به هواء شتوي بارد مرَّ سارقا زهرتها الحمراء، حملتها الريح بنعومة إلى سطح الماء... ظلت واقفة على الشاطئ تحملق في وردتها المبحرة مع مجرى النهر... ابتعدت الزهرة واستدارت الفتاة لتمضي إلى سبيلها، كانت ملامحها هادئة للغاية جذابة كأقحوانة ربيعية تفوح بأريج خلاب، وقفت تتسامر مع مجموعة من الصغار يلهون على الشاطئ في ظلال برج الذهب العتيق، تحدثت معهم وضحكت فتوقف الزمن لانفراج ثغرها، ودبت الحياة في الكون مرة أخرى مع ركض الصغار حولها مهللين، تركتهم بلطف مودعة إياهم بإشارة من يدها، وبينما كانت ترحل عن المكان نبتت إلى جواره زهيرة بيضاء بديعة، ولدت في كنف نخلة يتيمة، وكأنها ما خُلقت إلا لها، قطفها مسرعًا ونهض مهرولًا خلفها، ونفسه تحدثه: "ما تلك الحماقة يا سانشو؟ بالكاد رأيتها وما هي إلا لحظات وستذوب بين الزحام، وتنساها كوجه آخر عابر بحياتك".

توقف حيث يلعب الصبية ونادى أحدهم فجاء الصبي بخطوات سريعة تتبعه الحيرة والقلق من رفاقه، اقترب بتوجس وقلبه يختلج بالفضول والريبة، سأله سانشو مشيرا للاتجاه الذي سلكته الفتاة:

- هل تعرفها؟!

أومأ الفتى برأسه قائلا ببراءة:

- نعم

- إنها تأتي لهنا كل يوم..

- حسنا.. هل تريد الحصول على بيزو فضي؟؟

ابتسم الصبي وعقله يُخيل إليه ما الذي سيستطيع شراءه بالبيزو، استطرد سانشو:

- كل ما عليك أن تمنحها هذه الزهرة... الأمر في غاية السهولة.

التقط الفتى الزهيرة والقطعة الفضية، غمز بعينه وانطلق ليركض خلفها، رآه سانشو يتجاوز المارة برشاقة، يتفادى هذا ويمر بين الناس حتى وصل إليها، منحها ما أرسل به، ورأها سانشو ترفع رأسها لتنظر باتجاهه. مرَّ فوج من الرهبان، يقطعون الطريق ليفصلوا بينهما، ابتلعهما الزحام وتلاشت بين الأجساد، مضى إلى النُزل يجر ذيول الخيبة، حظ عاثر حتى في المغازلة، ليته ذهب إليها بذاته، ربما كان الأمر سينجح ويحصل على رفقة، ملامحها توحي بأنها موريسكية... ظلت عالقة بذهنه طوال اليوم لم يفلح في إبعادها عن رأسه...

في مساء اليوم التالي ببهو الفندق جلس يتناول عشاءه، حساء وشريحة لحم قطعها ولم يأكلها، اكتفى بأن يمنح قطا شريدا القطع تباعا، كان يجلس في زاوية شحيحة الضوء، وكلما نظر أحد باتجاهه تظاهر بمضغ لحم لم يذقه، يعامله أندرياس الخادم بودّ مصطنع، كل ما يعرفونه عنه أنه موريسكي ذو شأن، جاء لإشبيلية ليبحث عن عائلته حسبما يشاع، يراهم جميعًا نظراتهم تفضح فضولهم، والجو في الخان رائق، القناديل النحاسية تتوهج بالزيت وستائر مخمليه حمراء، وعبير شجرة الليمون يعبق المكان، حياة جديدة عليه بها مسحة من رغد، أينما حلَّ كانت الأنظار تتابعه، في السوق لهجته القشتالية ذات اللُكنه البرتغالية جعلت التجار يتجاذبون معه أطراف الحديث، يريدون بيعه أي شيء، رأى تجار غرناطة مختلفين عن بقية أهل إشبيلية، واضحون للغاية وعربيتهم ما زالت على الألسنة بلهجتهم التي طالما سمع عنها، الكلمات تسري لمسامعه ووجوههم باسمة رغم كل شيء، ليت سعد القرطبي كان معه اليوم حين جاب الدروب الأندلسية، أرواح من عمروها ذات يوم ما زالت تهيم في الطرقات، والبحث عن سارة وابنتيها في المحيط كان سيكون أسهل من البحث في إشبيلية، تلك الغاوية التي تجذبك بداخلها وكلما بحثت فيها عن سبيل للخروج تنغمس أكثر في ثناياها، تقضي عمرك هائما بشوارعها وحدائقها،

داهمه النعاس تثاءب وكاد ينهض لولا أن رآها.

دلفت تسير بخطى متهادية شامخة المحيا كسنيورا ثرية، رائحة عطرها تعبق المكان، وتلك الزاوية الشحيحة الضوء تمنحه أفضلية تفحصها، إنها فتاة النهر ذات الشعر الأسود المتموج، ثغرها الدقيق الباسم ينفرج فيزداد الجو صخبًا، ترفل في ثوب أسود، أزهرت فيه عشرات الورود الملونة، توسطت البهو ومن خلفها وقف رجلان أحدهما نحيل وَضع في طرف فمه عود رفيع، ومن على ظهره سَحب قيثارة وأخذ يعدل أوتاره، والآخر شاب طويل القامة يلبس ثيابًا ضيقة، وله وجه غجري صارم، يمسك بدف صغير، مرت لحظات وهي تجوب المكان بعينيها وعلى شفتيها بسمة باهتة... نطقت الأوتار فصمت الجميع، أما هي فتجمدت رافعة يد في الهواء والأخرى خلف ظهرها، أغمضت عيناها وصمّت أذناها عن الكون، سمحت للنغم بأن يتلاعب بعقلها وتركت قلبها يتمايل بغنج، دارت ودارت حول نفسها لتتفتح زهور حديقة ثوبها، تضرب الأرض بحذائها ويقرع الشاب طبلته، يزداد الإيقاع سرعة وتطير كفراشة مهفهفة بالأرجاء، وصار اللحن حزينًا، والعازف يجبر الأوتار على البكاء، وهي تتمايل كطائر ذبيح يرقص رقصة الموت الأخيرة، وصوت الفتى الخشن جعله يَشرد لوهلة، وسرعان ما جذبته هي، كانت بهجة تعلقت بها حواسه، تلاشي كل شيء ولم يبقَ

سواهما الآن، وإيقاع حزين هيمن على رقصة الفلامنكو حتى كلمات الفتى صارت أكثر وضوحًا رغم اللكنة الغجرية الواضحة: "**أسمع صوت أسلافي يسري بدمي العتيق الذي يعاني ويبكي... نعيش هائمين خائفين من سطوة جلاد يحكمنا باسم الدين، أشعر بأن الله ينقي روحي الغجرية.. فأمضي في دربي لأغرس الورود بدلًا من الألم».**

الحياة لحن ضائع في صخب الأيام، على وجنتيها لَمع بريق الدمع، خطان ذهبيان سُرعان ما امتزجا بسواد كحلها، سلبت ما تبقى من عقله، شيء ما بداخله أخبره أن لديها قصة، وما تصاريف القدر إلا سبب ليتعرفا، أفاق على تصفيقهم وإنهائها للرقصة، مسحت وجنتيها مبتهجة وحيتهم بإيماءة محبة، أمسكت بقبعة العازف وتقدمت للطاولات، النقود ترن وسط ضحكات السكارى، لم يتجرأ أحد أن يتحرش بها، فقط اكتفوا بنظرات تتمنى الوصل، اقتربت منه ولم يتحرك ظلَّ قابعًا في الظلال، ألقى ببيزو داخل القبعة قائلاً:

- أحسنتم.

- شكرا لك.

القتها وهمت بالرحيل، ولكنه تحرك ليغمر الضوء وجهه قائلًا:

- أنتِ موريسكية.. أليس كذلك؟

حدقت بوجهه عاقدة حاجبيها الجميلين:

- وما شأنك؟!

تلعثم ودار بعينيه ليطمأن أن أحدًا لم يسمع ما حدث، فحدثته وهي تتفحص وجهه:

- هل التقينا من قبل؟

- ربما.

- أنت صاحب الزهرة البيضاء!! نعم هو أنت.

ابتسم وكاد أن يقول شيئًا لولا قدوم الشاب الغجري، بدى كجدار يقف خلف جسدها الضئيل، قال بصوته الأجش:

- ريتا... هل هناك شيء؟!

قالت دون أن تلتفت إلى صاحبها:

- لا شيء على الإطلاق.. السيد كان يسأل عن موعد عرضنا التالي.

أومأ الشاب برأسه وأخذ منها قبعة النقود ومضى راضياً بإجابتها المقتضبة، رفعت أحد حاجبيها وابتسمت مستطردة:

- هل رأيت الفجر يسطع آتيا مع مجرى النهر؟

- بل رأيت أكثر.. شمس يلدها ويقبرها المحيط.

ضحكت ومالت إلى الأمام هامسة:

- بحار أنت إذن.. يقولون أن البحارة يتمتعون بخيال جامح لكثرة مكوثهم في البحر، التأرجح الدائم للسفن يصيب عقولهم بالجنون، وأظن أن ذلك السبب هو ما جعلك ترسل الزهيرة البيضاء الصغيرة.

- رأيتك تفقدين واحدة، هربت مع الريح قبل أن يتلقفها النهر وتبحر مبتعدة عنك.

- هكذا إذن!

- سأكون هناك قبيل الشروق، لن أستطيع تفويت ذلك المشهد.

- أي مشهد؟؟

- الشروق يأتي مبحرًا مع مجرى نهر الوادي الكبير.

ألقى جملته ونهض معلقا على كتفه وشاح سُمية الأخضر، مضى مبتعدًا تاركًا إياها تصارع سيقان من فضول نبتت والتفت حول ساقيها كشجرة متسلقة راحت تستحوذ عليها، نسيت أن تسأله عن اسمه وتعجبت كيف جذب ذهنها بهذه الطريقة، لمحته في اليوم السابق قبل أن يبتلعه الزحام،

وظلت زهرته بحوزتها، أودعتها عُلبة صغيرة بغرفتها، دون أن تعرف السبب.

***

نسمات الفجر الباردة مرت بنعومة على صفحة الماء، اشبيلية الجميلة تغط في نوم عميق، وحده يجلس على حافة نهر الذكريات المتدفق، مركب استيقظ بحارته بمبكرًا، انهمكوا في تجهيز سفينتهم النهرية للإبحار، ذكروه بسنوات قضاها في البحر هائمًا، يشتاقإلى هواء بحر لشبونة المشبع بالملح وأجوائها الغائمة دوما، سواحل كوبا الفيروزية وشواطىء المكسيك ذات الرمال الناعمة والمياه الصافية، القدر أخذه في رحلة بأركان العالم الجديد؛ ثم ألقى به مرة أخرى بأرض الأندلس، قدره مرتبط بهذه الأرض.. عليها ولد وانتهى به الأمر يجول بمدنها دون هدف، أما الآن عليه أن يجد سارة وآنا وأوفيليا، شَعر كمن يلاحق شخوص من سراب، لا أثر لهن وتلك الحسناء كان اسمها ريتا... هل ستأتي؟ أم اكتفت بحديثه الفظ القصير، لم يكن عليه أن يتحدث معها بتلك الصفاقة والثقة المفرطة، رقصتها الحزينة في بهو النزل تعاد الآن على صفحة النهر، كجنية بُعثت من قبس المشاعل البعيدة، كان شاردًا في ذكراها القريبة حين سمع صوتها يأتي من خلفه:

- جئت مبكرًا لتحتل مكاني المفضل إذن.

استدار مزينا وجهه بابتسامة عريضة:

- أردت أن أرى ما وصفته لي من خلال عينيك ومكانك.

- هل أسمي هذا غزلا؟

نهض مفسحًا لها المجال، وقال ساخرا:

- إنها الحقيقة، التي طالما سألت نفسي عنها، لماذا يجلس البشر لكثير من الوقت أمام البحر والنهر وبرك المياه الجارية؟ والإجابة التي وجدت أنها مناسبة، أن لكل منا رؤية خاصة وحكاية يسردها على مسامع المياه، وكأننا نأمل أن تبحر همومنا وأفكارنا بعيدا.

- ليس هناك كثير من الوقت لترى بعينيك أجمل مشهد.

- أتمنى أن يستحق المجيء باكرا إلى هنا.

- على الصخرة متسع لنا.. اجلس وسترى سيد... أليس من الغريب أننا لم نتعارف حتى الآن؟

- أنا سانشو.. الأشبوني هكذا يلقبونني.

- وأنا ريتا.

- أعلم سمعت الفتى يذكر اسمك أمس.. أهو زوجك أو

قريب لك؟

- إنه مجرد صديق وقريب لجهة أمي، نبحث عن رزقنا في الفنادق والساحات.

- لست موريسكية أليس كذلك؟

- تم وسمنا جميعا بهذا الاسم، والدي يهودي سابق تم تنصيره جبريا ككل أهل المدن بمجرد صدور الأمر الملكي منذ زمن، أما والدتي فهي غجرية ومن رأيتهم معي أمس هم آخر من تبقى من عائلة أمي، ما زال هناك كثير من الغجر، نسكن كور وأنحاء إشبيلية وتلك الوديان الخضراء... ولكن أكثر الناس رحلوا إلى أراغون وبلنسية وتلك الأنحاء، وهناك آخرون في غرناطة وألميرية ومالقة والبعض عبر المضيق إلى المغرب... نحن الغجر نحب الحرية فقد خلقنا من الريح وركضنا مع الخيول البرية، افترشنا العشب وفي عروقنا تسري مياه الجداول الباردة الآتية من جبال ذات قمم جليدية... انظر ها هو النهار يبرز في الأفق البعيد.. عليك متابعة سطح النهر لترى تقلب الألوان وكيف تُقهر العتمة أمام الضوء.. السماء تتحول إلى لون وردي كخد عذراء أصابه الخجل... انصت لصوت الطيور تستيقظ وخرير الماء يعزف لحن صباح جديد، هذه هي الحياة، أن تشهد فجر كل يوم جديد، وتحدث نفسك أنه ليس الأخير، وأن على هذه الأرض

سعادة ستأتي في أثر شمس الصبيحة المشرقة، حتى تلك الغيوم الداكنة يغزو أطرافها ضوء النهار رويدًا حتى يحيلها لبياض تذره الرياح.

- وأرواحكم خلقت من الرياح؟

ضحكت وأعادت خلصة من شعرها تطايرت إلى الخلف:

- ذكي أم متحذلق؟

- موريسكي من لشبونة، أبحر مع الأيام عنوة ونقله موج القدر عبر البلاد تقلبا. زرت موانئ عدة ومدنا كثيرة.

- وما الذي جاء بك إلى إشبيلية؟

- أبحث عن عائلتي.

- ألم تقل أنك من لشبونة..

- أنها قصة طويلة للغاية.

- هيا قصها على مسامعي.

- إنها مملة في بعض أجزاءها. وأخشى ألا تعجبك.

- أنا من سيحكم وليس أنت..

لم يكن هناك مفر من الحكي، قصة أعادها على مسامع كل من اقتربوا منه، يرحلون ويضاف جزء جديد لقصته، هكذا

الحال دوما.. لا يدر لم خشي أن يفقدها ككل رفاقه السابقين، كان حزينًا وكانت تنصت، لا تدري لما حثها صوت بداخلها على احتضانه، فعلت... وكان بحاجة لهذا.

سانشو وريتا جمعهما القدر لغاية ما، أيام مرت وتفرغت للبحث معه عن سارة وابنتيها، جابت معه الدروب وطرقا أبواب المنازل، شَعرت وأن العالم كله تبدل في تلك الأيام القليلة، تفتحت زهور الربيع بألوان زاهية، وأوراق الأشجار صارت أكثر نضارة، وعبقت الأجواء بعبير الورود وأشجار البرتقال، الحياة مبهجة إلى جواره لا يفترقان إلا عند النوم، ويلتقيان في الصباح التالي، ضحكتها في الصباح تجبر الشمس على أن تغير منها، عرفته على معالم المدينة، أسوارها وأسواقها وقصورها الملكية، بعضها يعود لحقب الحكم الإسلامي، حكت له عن المعتمد، واعتماد وقصة حبهما التي ما زالت تلهم العشاق، لم يتخيل أن يحب رجل امرأته إلى هذا الحد حين سردت على مسامعة حكاية يوم الطين، سألها عن أكثر ما تتمنى تحقيقه، بيت صغير يطل على جرف وادي به جدول ماء جاري، تظلها السماء ولا يلوث البشر بضوضائهم حياتها.. تواجدها الدائم معه جعل لحياته رونق، لم تذهب يوما للرقص منذ تعارفا، الأمر الذي لم يعجب دييجو –عازف القيثارة- خالها الذي صار يمقت سانشو، أخبرها بعدم مرافقة الغرباء، وألا تأمن لذلك البرتغالي ولكنها

صُمت عن تحذيره، آخر حديث بين سانشو ودييجو كاد أن ينتهي بشجار لولا تدخل -غارسيا- الشاب الغجري قريبها، يتبع خطاهما طوال الوقت، فما كان منهما إلا أن هربا منه في سوق المدينة ودروبها الضيقة المسقوفة، ضحكاتها غمرته بالسعادة وجعلته يرى إشبيلية أخرى غير تلك التي رسخت في عقله، ربتا هي موجة سعادة تلاعبت بسفينة عقله.

ذات يوم تبعها وصعد خلفها درج لا نهاية له، المكان ضيق والنوافذ القليلة لا تضيء المكان كفاية، لم يكن عليه مجاراتها في ذلك الأمر، لو تم الإمساك بهما ستكون العواقب وخيمة، جرأتها جرفته وتحديها أمر صعب، والتسلل إلي الخيرالدا كان أسهل من إقناعها بالعدول عن الفكرة، شَعر بالدوار وانتشلته هي بكلماتها قبل أن تطبق عليه الجدران:

- لم يبقَ سوى القليل ونصل، هل تعبت؟

- لا..

- حين ولجت أول مرة إلى هنا كنت أريد تحرير روحي من ذلك الجسد، حينها كانت حياتي بائسة أشعر بالفشل وخذلان كل قريب، جلست لأستريح ونفسي تحثني على الصعود للأعلى، وبعدها كل ما عليَّ فعله ترك جسدي يهوي... أردت الموت وقمة الخيرالدا كان لها رأي آخر.

كلمتها الأخيرة امتزجت مع صوت صرير الباب الخشبي، فتحته ليقهر نور المغيب الأحمر تلك الظلال الكئيبة، حصرها على الدرج وخرجت ريتا يتبعها سانشو... هواء عليل لفح وجهيهما لتطاير خصلات شعرها، شعر ببهجة تسري بوجدانه، فما كان منه إلا أن أغمض عيناه وفتح ذراعيه مستقبلًا الهواء، وحين فتحهما رأها كما لم يرها من قبل، هائمة بالأفق ومن خلفها سماء طُليت بشفق الغروب الأحمر، غابت الشمس وتوهجت هي، تركها في سكونها وراح يحدق بالمدينة أسفله، المنازل ضئيلة والأحياء متناسقة، الشوارع والدروب كلها تؤدي إلى الكاتدرائية وساحتها، يستطيع تمييز الأحياء والقصور، حدائق كثيفة، الوادي الكبير يجري خارج الأسوار العتيقة، كبيرة إشبيلية... والمشهد خلاب وظلال الليل تزحف رويدا فوق الأسطح والبساتين، الناس في الأسفل صغار للغاية صخبهم وأحاديثهم لا تصل إلى سمعه، فقط الريح يهدهد الأجراس المعلقة دون أن يقرعها، صوتها الناعم تسلل إلى أذنيه:

- هذه ناحية القصور... لا تستطيع أن تفرق بينهم في العمارة، قصور بني العباد وقصور قشتالة والصانع واحد، كذلك الخيرالدا التي نقف أعلاها كانت صومعة المسجد الذي أقامه الموحدين، كانت أمي تقول إنه تعرض للزلازل والانهيارات منذ حول إلى كنيسة، حتى قرر الكهنة هدمه

وبناء الكاتدرائية لم يتبقَ من البناء القديم سوى بهو البرتقال ذلك الذي عبرنا منه أثناء دخولنا وهذه الصومعة الشاهقة.

- المكان له رهبة، تلك القشعريرة الباردة تسري بجسدي كلما زرت مكانا كهذا.

- إنها أرواح أسلافك، يتحسسونك هذه طريقتهم في التواصل.

بدى متوجسا وقد عقد حاجبيه:

- هل سنرحل الآن؟

- أوه.. سانشو الصغير يخشى قصص الأرواح والجان؟

- ليس الأمر هكذا... الأماكن المرتفعة تصيبني بالدوار.

- حسنا، لن أخبرك بكل تلك الأمور عن مواجهة مخاوفك بفعلها، دعني أُريك السبب الحقيقي لمجيئنا إلى هنا.

التفت مشيرة إلى أحد أحياء المدينة مستطردة:

- لقد بحثنا عن أقربائك هنا وهنا.. وبالطبع حي الدباغين والأحياء الموريسكية القديمة، تستطيع أن تقول الآن أنه لم يتبقَ لنا سوى منطقة القصور وفحص الحدادين... وهذه المنطقة ولا أظن أنه أمر سديد بالدخول لها.

- لماذا؟؟

- انها تعج بالسكارى ومصارعي الثيران والأفاقين، لا أعتقد أن هناك امرأة وابنتيها تستطعن النجاة هناك، ولو استبعدنا منطقة القصور، لن يكون أمامنا سوى فحص الحدادين.

- أتمنى أن نجدهن.

استدارات إليه بغتة:

- وبعد ذلك ماذا ستفعل؟؟

- لا أعلم، فقط عليّ إيجادهما قبل أن يضع ديوان التحقيق يده على منزل خالتي سُمية.

كان الحزن يهيمن على قسمات وجهه رغم محاولاته الفاشلة للإبتسام، اقتربت منه حتى ذابت المسافة بينهما وقالت بنبرة خافتة:

- لا ترحل.

كاد أن يقول شيء ولكن شفاهها الرطبة اسكتته، ظل جامدا مشدوها لا يدرك أهذا حقيقة أم وهم، تراجعت برقة وخجل وبدى أنها تلوم نفسها على ما فعلت، قبل أن تستدير جذبها برفق نحوه وانغمسا في قبلة طويلة شهدها طائر لقلق كان ينوي بناء عش فوق الخيرالدا.

***

اشرقت شمس إشبيلية وراحت ترتقي السماء ببطء، ضوئها غشى وجهه فاستيقظ ليجدها نائمة في كنفه، كانت تطوقه بذراعها، تأملها وعقله يعيد عليه تفاصيل ليلة أمس، كان يبتسم بينما تعبث أنامله بشعرها الأسود، لم يقطع هيامه بها سوى دوي صم الأذان، قرعت أجراس البرج، رنين راح يرج عقله رجا، أفاقت هي فزعة مرتاعة، إنها صيحة الموت أو هكذا بدت، احتضنها بين ذراعيه واحتوت رأسه بيديها لتغلق أذنيه عن الألم، وحين بدأت الأجراس تخفت رويدا لملما أغراضهما ودلفا إلى الباب لينزلا، كان الألم لا يطاق، غسلا وجهيهما من حوض بهو البرتقال، ضحكا ورش بعضهما البعض بالمياه، وجاءت صيحة غاضبة من راهب لتجبرهما على الركض إلي داخل الكاتدرائية، الزحام شديد وقداس الأحد على وشك أن يقام، اتخذا مكانهما في الصفوف الخلفية بينما يفسح الشمامسة الطريق لموكب ملكي، يتبعه أثرياء المدينة والقادة العسكريون... وكان بينهم آخر شخص لم يتخيل يوما أنه سيراه، الإنكا... دي لافيجا.

كان يسير مرتديا بزته العسكرية الحمراء، لم تتغير ملامحه فقط ترك لحية صغيرة مدببة تنمو أكثر فوق ذقنه، شعره ممشط بزيت جعله براقا، القس يتلو عظته وعقل سانشو

وعيناه منشغلان بالرجل، لاحظت ريتا تلك السعادة على قسمات وجهه، الغيرة لعبت برأسها فسألته هامسة: هل هناك خطب ما؟

- شخص ما أظن أني أعرفه.

- أين.

- ذاك الجالس في الصف الأول هناك، إلى جوار تلك السيدة التي ترتدي الأصفر.

- أول أربعة صفوف يملكهن الأمراء والنبلاء.. ما الذي تخفيه عني يا سانشو؟

- لا أخفي شيئا هو مجرد صديق قديم عليّ مقابلته بعد العظة ربما يساعدنا في البحث عن سارة وابنتيها.

حوارهما الهامس جعل أحد الجالسين بجواره يشير لهما بالصمت، ولكنها لم تبال، مالت على أذنه وقالت بصوت خفيض جدا:

- متى تنتهي هذه العظة المملة؟ لم أحضر أي قداس منذ سنوات سوى تأبين أحد أقربائي الذي ظن أنه بدخوله للمسيحية وإخلاصه للكنيسة سيسهل اتجاره بالخمر المغشوش.. أتعرف كيف مات؟... مات غارقا ببرميل من نبيذ.

كانت تضحكه، تمسك يده وتعتصر أصابعه، تقرص ساعده دون مبالية بتأفف العجوز الجالس لجواره، انتهت العظة وبدأ الناس في الخروج من الكاتدرائية، وسانشو انتصب واقفا يبحث بعيناه عن صاحبه، كان يسهل تمييزه بين الزحام، أمسك بيدها وقال لها اتبعيني، شقا الجموع بصعوبة دون أن يأبها بالنظرات الغاضبة المتقززة، هيئتهما وملابسهما تبدو رثة كلما توغلا داخل طبقات الناس، استاء النبلاء من وجودهما وحاول الحرس أن يحول بين وصوله إلى هدفه، فنادى بصوت مرتفع:

- سيد دي لافيجا.. انه أنا سانشو.

التفت إليه الرجل وسرعان ما ابتسم، أشار للحرس بأن يسمحا لهما بالولوج داخل دائرة الأمراء والنبلاء، كان الرجل مبتهجا لرؤية سانشو، صافحه بحرارة قائلاً:

- هذا العالم صار أضيق مما أتخيل... كيف حالك يا سانشو.

- اللقاء قدر مكتوب سيد دي لافيجا.. أنا بخير وسعيد للغاية أني رأيتك هنا في إشبيلية.

بدل الأنكا نظراته إلي ريتا الواقفة خلف سانشو وخفض رأسه محييا إياها ومحدثا سانشو:

- يبدو أنك وجدت ضالتك هنا.

ابتسمت ريتا بخجل وسانشو يقول ضاحكا:

- ريتا... هذا الإنكا دي لافيجا الذي حكيت لك عنه قبل ذلك.

- تشرفت بمقابلتك سيد دي لافيجا.

- الشرف لي سيدتي.. يبدو أن سانشو أكثر حظ مني في هذه البلاد..

أنهى كلماته مربتاً على كتف سانشو مستطردا:

- كيف آل بك الحال هنا؟

اختلى به سانشو لوقت طويل بجوار عامود رخامي، لم تستطع ريتا سماعهما من مكانها، ظلت تقف متململة تتحاشى نظرات الحرس السمجة، بدا على وجه الرجل الاهتمام والإنصات لما يقوله سانشو... به شيء عجيب يجذبها إليه، رجل أحلامها التي لطالما انتظرته، وسيم وبسيط وحر مثلها، الحياة في وجوده أمنة دافئة، أيامهما القليلة معا لها طعم خاص عن تلك التي مضت من عمرها، يُضحكها حين يتحدث بجدية يُحب أن يستمع لها وينصت بإهتمام لما لقولها، وما حدث الليلة الماضية في برج الخيرالدا كان ذروة الجنون والرغبة المشبعة بحب وليد، هذا هو الحب إذن يطرق باب القلب دون استئذان ويذوب مع نبضاته ساريا

بالعروق والوجدان، سانشو ذلك الوسيم الغامض... يحمل سرا بداخله لم يبح به ويخفي الكثير ولكن كل هذا لا يهم، ما يهمها هي هالة السعادة المحيطة بها حين يكون بجوارها... أنهى الحديث مع صاحبه وعاد إليها، عيناه تلمعان ببريق أمل وسعادة، اقترب منها فاحتضنته واسندت رأسها لكتفه، كان فعلها مفاجئا في ذلك المكان وأمام عيون الكثيرين ممن لا يستسيغون وجودهما، أزاحها بلطف وشَعرت هي بجفاء، وما هي إلا لحظات وخرجا تباعا من الكاتدرائية، ريتا تحث الخطى بوجه متجهم وهو خلفها بملامح جامدة خاوية، يحدث نفسه " لم أفعل شيئا "، وريتا كانت تَشعر بقهر من فعله بها، كيف يزيحها هكذا عن صدره أمام العيون، أهانا وقد كانت ترجو أن تخرج من تلك البوابة متشابكا الأيدي لتراهما كل إشبيلية.

ليلة سيئة مرت على كلاهما، ذكريات عدة دُحرت أمام صورة ريتا، لام نفسه على ما وصلت إليه الأمور معها، ما كان يجب عليه أن يدخل في تلك القصة من الأساس، جاء لإشبيلية لهدف ما وعليه تحقيقه والرحيل، كانت ليلتهما في الخيرالدا خطيئة لا تغتفر ولكن الله قدرها ليلقى صاحبه القديم والذي وعده أن يساعده في البحث عن بنت سُمية، ما وجب عليها أن تحتضنه هكذا أمام الناس، لم يرق له فعلها ولكن ريتا جميلة، نعم هي لحظة سكون في محيط

حياته المتقلبة، هي رذاذ ماء عذب في بحر شديد الملوحة، أين ذهبت وكيف تقضي ليلتها؟ عليه أن يجدها ترك النُزل ليلا واتجه لشاطىء النهر كان المكان خاويا والريح تحكم الأرجاء... مكث حتى الفجر وجاءت الشمس خافتة محتشمة بالغيم ولم تأتِ ريتا.

كانت ليلتها هي الأسوء في حياتها، كيف تعلقت به هكذا في تلك الفترة القصيرة، تلوم نفسها وتحاول ألا تبكي فتبكي، عقلها يخبرها بصواب ما فعلت ويجب أن تبتعد عنه حتى لا يأتي يوم ويؤلمها مثل اليوم، نهرها أمام الجميع ويبدو أنهم لاحظو ذلك، ولكنها لم تفعل شيئا سوى أن لبت نداء قلبها باحتضانه، ودت فعل هذا ففعلت ليس لأحد سلطة عليها ليخبرها أن هذا صحيح أو غير لائق، طوال حياتها فعلت ما تحب ولم تأبه للناس... لما نأبه حقا بهم؟ هذه حياتنا ونعيشها كما يحلو لنا هذه هي قاعدتها في الحياة، نشأت بين أكواخ ومنازل الغجر خارج إشبيلية وحين اشتد عودها دخلت إلي المدينة العامرة وحي الدباغين حيث حلبات الثيران، وجاء هو ليسلبها قلبها الذي يُلح عليها بالذهاب إليه والحديث معه هل يظن أنها عاهرة أم فعلت كل ما فعلت بحب صادق متدفق من نبع وجدانها... صراع بين القلب والعقل نال منها وأرق ليلتها في منزل خالتها سيلفانا التي حين أطلت عليها بعد الفجر لتجدها نائمة كالأطفال، ريتا لم تكبر في نظرها

قط.. هناك من جعل طفلتها تتألم وتحزن لذا كان أول حديث جمعهما على مائدة الغداء سألتها سيلفانا عن اسم الشخص الذي تخرج معه، اخبرتها أن غارسيا ابلغها بذلك الأمر، غضبت ريتا وازدادت حنقا خرجت من المنزل على غير هدى، ما وجب على خالتها أن تتحدث بتلك الطريقة وما كان ينبغي على الأحمق غارسيا أن يخبرها بشأن يخصها وحدها، جابت الطرق كزوبعة لا تعرف مستقر لها ولا نهاية حتى وجدته أمامها بغتة.

نظرة طويلة معاتبة وأشاحت بوجهها، حاولت المرور من جانبه بعد توقف دام لبرهة ولكنه قطع الطريق فجأة أمامها، رفعت رأسها بعزة وتطلعت بوجهه قائلة بحزم:

- ابتعد عن طريقي.

- لم أفعل شيئا يستحق كل هذا.

- بل فعلت.. أهنتني أمام الجميع ونهرتني وكأني عاهرة لا تريد أن تلوث هيئتك أمام سادة القوم.

احتضنها فجأة فصمتت، وجدت ذراعيه تحيط بها حاولت التملص فغاصت بصدره أكثر وهو يقول:

- ريتا.. أريدك معي.

كان فعله مفاجئا كما فعلت بالكاتدرائية، شعرت بأعين الناس تخترق جسديهما حسدا وغيرة وبغضا، وعجوز مارة كانت باسمة وسعيدة لأجلهما، رفعت عيناها لتصطدم بعينيه التي اغدقت عليها بالطمأنينة حدثته هامسه وهي تنسل من بين يداه:

- الناس ترانا.

قبل أن تفلت منه أمسك باطراف اصابعها قائلا:

- لم أعهدك تأبهين لأمرهم.

- سانشو... لا تبتعد عني مرة أخرى.

- لن أفعل.

- وكيف أعرف أنك سوف تفي بوعدك.

- سأدعوك لحفل راق بقصر المورق؟

غمغمت بحروف ثقيلة:

- قصر المورق؟!

أومأ برأسه وهو ينظر بعيناها:

- سيكون علينا شراء ملابس أنيقة تليق بالمكان.

- أنت لا تكذب.. أليس كذلك.

- أنا جائع.

- سانشو أنا أتحدث بجدية الآن.

ضغط على يدها بقليل من قوة وهو يتطلع بعيناها:

- نحن مدعوان بالفعل والإنكا سيكون في انتظارنا بعد الغد.

مد يده بمطوية ورقية وعرضها أمامها، لم تكن تعرف القراء ولا تميز الأختام، ولكنها حدقت بالورقة مدة كافية حتى بدأ سانشو يقرأ ما فيها:

- دون سانشو الأشبوني.. تحية طيبة، إنه لمن دواع سرورنا نحن الدون ساليزار حاكم إشبيلية بدعوتكم لحضور الحفل النبيل بقصر المورق على شرف تواجد القائد العسكري الإنكا دي لافيجا بمدينتنا العظيمة..

ألقاها بصوت رخيم، كلمات قليلة وأداء اضحكها وصدقته لأنها أرادت أن تكون معه، تجولا بين الدروب حتى استقر بهما الحال في مطعم بسيط قدم لهما وجبة من اللحم المشوي بالإضافة لحساء البصل والعدس، وأثناء غدائهما دار بينهما حديث طويل عن أمنياتهم وأكثر الحفلات صخباً، ظل يستمع إلى حديثها باستمتاع وما إن انتهت أخذ رشفة

طويلة من قدح الماء البارد قال بعدها:

- رأيت حفلات النبلاء في الصغر بلشبونة وكيف كان البذخ يسيطر عليها، ستستمتعين... هناك في العالم الجديد كانت تقام حفلات العمال والعبيد والبحارة، جلهم غرباء في جنة ليست كالجنة التي بكتبنا المقدسة، رقصهم وغنائهم على وهج نيران المخيم، ألحان القيثارات وقرع الطبول السريع، همهمات رجال الإنكا... كنت أجلس فقط بوسطهم ليخدش صخبهم عالمي الهادئ، كانوا انقياء.. مجبرين على العمل.. بؤساء يبحثون عن قبس من سعادة، قدر ضئيل من البهجة قد يفلح في منحهم أيام إضافية في حياة تبدو قصيرة أكثر مما ينبغي، كانت لهم أحلام... سعد القرطبي كان يأمل دوما بالهرب والمجيء للأندلس، أمل أن يجد في بلنسية ملجأ مناسبا له ولعل سفن العثمانيين تأتي بالمدد يوما، وهناك كان رجل لا أعرف اسمه هرب لغابة كثيفة في البيرو ولكنهم أتوا به ميتا، العجيب أن جل الأحلام كانت عن الحرية... وما إن نشعر بها نعرف أننا سجناء مرة أخرى.. ربما لهذا أردت الانتحار وكذلك فعلت في لشبونة ولكن البحر لفظني للشاطئ وكأنه لم يستسغ طعمي أو لعله عرف أن هناك حياة يجب أن أعيشها... معك.

- ما الذي ألقى بك في طريقي؟

- القدر يا ريتا.. أنتِ أجمل هدية منحني إياها يوما، اليوم فقط عَلمت أني أكثر حظا من ذلك الشاب الهندي البائس على متن سفينة برتغالية غرقت بعد رحلة طويلة في البحار، انقذناه ليعود للأسر مرة أخرى، كُتب عليه أن يبقى مجدفا طوال حياته.. كان في مثل عمري وربما يكبرني بعام، كان ملفت للأنظار أينما حل بعيناه البنيتان الواسعتان وشعره الأهوج الكث، كان كئيبا طوال الوقت لا يحدث أحدا وكلما حاول الهرب أعيد مرة أخرى مكبلاً بالصاري ويلبث لأيام على هذا الحال قبل أن يعود للتجديف مرة أخرى، حين حدثته أول مرة نفر مني ولم يجبني ولكن ذات يوم وأنا على سطح السفينة جاء وجلس إلى جواري، كانت من المرات القليلة التي يصعد فيها إلي السطح... كان اسمه بركة بن يونس بن أيوب المصري... أسير جيء به من مدينة تدعى – جوا – بساحل الهند، اخبرني ذات يوم أن والده كان بحار من جيش المماليك البائد وحارب البوكريك وواجهه بل وهزمه مره قبل أن يلتحق بسلطان الهند بعد غرق سفينته... كان يفتخر بأصوله العربية رغم حزنه الدائم ويُمني نفسه بالعودة إلي دياره ذات يوم. كان لديه هدف ان ينتصر يوما ويفلح في الهرب والعودة لأهله، وكنت خاويا من كل شيء.

توقف سانشو عن الحديث وشَرد لبرهة أفاق بعدها على صوت ريتا الناعم:

- هل أنت بخير؟

- نعم.. أنا بخير الآن، كنت أحسب أن اليأس تملك مني بعدما فشل من مداهمة عقل بركة ولكني وجدتك.

- ربما وجد بركة ضالته أيضا.

- أتمنى ذلك.. أتعرفين إنه الشخص الوحيد الذي ودت معرفة حكايته حتى النهاية ولكننا افترقنا بعد التحاقي بطاقم الربان دي سيلفا ومعرفة سعد القرطبي والإنكا.

- هل ستلبي دعوة هذا الأخير حقا؟

- بالتأكيد.. هو الوحيد القادر على مساعدتي في البحث عن سارة وابنتيها.

مع مغيب الشمس كانا قد وصلا إلى الحظيرة حيث زار حصانه الأندلسي، كان جميلا، دماؤه تحمل أصالة الخيل العربية وقوة ومتانة خيل الحرب الإسباني، تحسست ناصيته ورقبته وهمست بأذنه بشيء لم يلحظه سانشو الذي استئذنها للصعود لغرفته ليبدل ملابسه، بقيت هي مع الجواد واتخذ هو طريقه للأعلى، اغتسل بماء بارد طلبه من الخادم، لم يكن كثيرا ولكنه كاف ليزيل عنه رائحة العرق وما علق به من غبار اليوم، سكب الماء وهو يسترجع ما حدث خلال

الأيام الماضية وتلك الليلة الأسطورية معها.. ريتا التي بدلت حياته، قطة غير مروضة قلبت حياته رأس على عقب، الحظ ابتسم له وكانت سمية صادقة في نبؤتها، خرج من مكان استحمامه متمتا بأغنية كان يرددها البحارة عن جزيرة ذات رمال ذهبية تحكمها أميرات ليس بجمالهن إنس ولا جان، فرغ من الغناء وهو يمسح ووجهه ورأسه بالمنشفة مستطردا بالعربية: سأنهي كل هذا وأبقى مع ريتا، سأعرض عليها الزواج وأرجو ألا ترفض.

- قد آخذ وقتي في التفكير.

توقف عما يفعل متجمدا، كان صوتها والأغرب انها اجابته باللغة التي كان يحدث بها نفسه، ازاح المنشفة ليجدها تجلس على طرف الفراش، حدق بها ذاهلا فقالت بالقشتالية:

- هل ستظل واقفا هكذا.

ركض وهو يستر نفسه بالمنشفة، ضحكاتها لم تتوقف بينما انحنى هو ليرتدي ملابسه خلف الفراش قائلاً:

- كيف دخلتِ إلي هنا.

- ليس هناك مكان يستعصى على ريتا دخوله.

- ولكن هذا النزل لديهم قواعد مشددة حول اصطحاب

الغرباء.

- أنت قلتها الغرباء...

دام الصمت لبرهة قبل أن تزيحه هي جانباً محدثة إياه:

- سانشو.. هل ذلك العالم الجديد جيد كحكاياتك عنه؟

- سيكون رائعا بوجودك.. سنصنع عالمنا الخاص، ربما بيت صغير بهافانا على حافة تل يُشرف على شاطئ رملي شاسع. نشهد الشروق في كل صباح جديد، ربما سيكون علينا انهاء كل شيء قبل مغادرتنا.

- لا أود الذهاب لأي مكان.. بيت صغير خارج إشبيلية تحيطه غابة أشجار صنوبر ولوز ستفي بالغرض، أحب هذه الأرض سانشو ولا أريد الرحيل عنها.

اقترب منها وانحنى قليلا حتى تقابلت عيناهما، وقال بنبرة عميقة مرقت إلى قلبها كقذائف تلك البنادق الجديدة التي يحملها الجند، أرعدها بقوله:

- أحبك.. ريتا وسابقى معك أينما كنتِ.

تكاد تسمع خفقات قلبها، انساب الدمع مختلطاً ببسمتها الرطيبة، احتضن وجهها بين كفيه برفق مستطردا:

- هذه المرة الأولى التي أنطق بها.

قبلت راحة يده اليمنى برقة وقالت:

- اصدقك.. سانشو أنت رائع.

- الآن فقط.. قبل ذلك كنت كقنديل عتيق تبدد زيته، أقبع في ظلام الحياة وحيدا، وجئت أنتِ لتنفضي الغبار وتزيلي الصدأ، مددتني بالحياة وصرت أفهم معناها.. ريتا هل تتزوجيني؟

اجابتها كانت أن احتضنته بقوة، التفت ذراعاها لتحيط بصدره، ضمته وبقيا على حالهما للحظات قبل أن يمرر أصابعه على شعرها هامساً بأذنها:

- سيكون علينا شراء خاتمين للزواج مع ملابس الحفل.

ابتعدت عنه متراجعه:

- ليس بهذه السرعة.. على العروس أن تستعد، هل رأيت عرسا غجريا يوما ما؟؟

- لا.

- إذن فاتك الكثير... دعنا نذهب لحفل قصر المورق وبعدها... ننهي كل شيء كما قلت أنت وبعدها نقيم عرس لم تشهد إشبيلية مثله.. عرس غجري، ستستمع بالتأكيد.. حبيبي.

راقت له كلمتها الأخيرة، تحرك عبر الغرفة ثم رفع طرف الفراش وأخرج سُرة نقوده، سكبهم على الفراش أمامها:

- أظن أن هذا كاف لكراء بيت وشراء ملابس رائعة وإقامة عرس و...

حدقت بالقطع الفضية، كانوا أكثر من أن تحصي اقتربت مغمغمة بتوجس:

- من أين لك بكل هذا المال؟

- لا تخافي.. فهذا مالي ورثته عن سُمية.

- وبناتها لها مثل هذا؟؟

- بل أكثر بكثير.

- ماذا لو لم تعثر عليهن.

- وعدني دي لافيجا أنه سيبحث عنهن.

- ألم تتخيل يوما أنك قد لا تستطيع إيجادهن؟

- تلك أمانة عليّ إيصالها... وصية سيدة أوتني ومنحتني سبب كاف للحياة، على ألا أخذلها ما حييت.

- أنت رائع.

- وأنتِ جميلة.

في اليوم التالي خرجا بإتجاه السوق مبكرا، وبعد تجوال وبحث دام طويلا يأسا في الحصول على ملابس مناسبة للحفل حتى تذكرت تلك السيدة الغرناطية حائكة الملابس بدرب جِمص، كذلك كانت تسمى المدينة إبان حكم العرب لها.. ذهبا سويا وطرقت هي الباب وبعد قليل كانوا بداخل المنزل وسط ترحاب السيدة الكريمة، منزلها يتشابه مع بيت سمية رغم صغره، كانت تعرف ريتا وقدمت لهما الحلوى محدثة إياها:

- ظننت أن آخر ثوب قمت بحياكته لكِ لم يعجبك. لهذا لم تعودي لزيارتي مرة أخرى.

- ها أنا ذا.. وجئتك لأنك الوحيدة القادرة على منحنا ما نريد.

صكت المرآة وجهها وريتا تستطرد:

- اريد ثوبا فاخرا يصلح لحفل بقصر المورق.

عقدت الغرناطية حاجبيها أكثر وبدى على وجهها الدهشة، وما زادها استغراب هو طلب ريتا التالي، ملابس للشاب الموريسكي الذي يرافقها.. ثوب أخضر ملكي من الحرير له حواف بيضاء بدت فيه فاتنة، صنع لأجل نبيلة قشتالية

سافرت مع زوجها للعالم الجديد وتركته، لم تدفع ثمنه رغم كُلفته الباهظة، فقط بعض التعديلات الصغيرة ستقوم المرأة بضبطها، أما سانشو فكان عليه أن ينتظر حتى تختار له هيئة مناسبة لجسده المفتول، مقاسات وتفكير والوقت يمضي، كان تحديا للغرناطية التي لم تعمل منذ زمن على ملابس الرجال، كل زبائنها من النبيلات والأثرياء وبعض الفتيات كريتا، وحين بدأ الليل يخيم وجد سانشو نفسه يطوق للخروج من المنزل، استأذنهما بعد أن اخبرته ريتا بوجوب مساعدتها للمرأة، خرج ليجوب الطرقات حتى وصل للخان، وفي بيت الحائكة انكفت ريتا بجوارها لقص وحياكة ملابسه حتى مطلع الفجر.

***

صباح مشرق استيقظ فيه على زقزقة عصفور استظل بحافة نافذته، نسيم خافت تلاعب بالستائر الناعمة تقلب بالفراش حتى استقر مستلقيا على ظهره، ظل يحملق في السقف حتى غفى مرة أخرى، غفوة لم تدم طويلا داهم عقله صوت طرقات على باب غرفته، نهض مرتدياً قميصه على بروية وبطىء، وفي طريقه القصير نحو الباب ارتطم اصبع قدمه الصغير بساق الكرسي، تأوه وامسك قدمه متألماً متحسسا اصبعه المتورم وعادت الطرقات مرة أخرى،

بعصبية فتح الباب ليجد أمامه خادم النُزل يحمل بين يديه لفة من القماش المخملي، منحه إياها ورحل بعد أن حياه بإشارة ودودة، نبضات ألم تملكت اصبعه الصغير وزادت من توتره، أغلق الباب وشرع في فتح اللفافة... لتحل على وجهه ابتسامة راضية مفعمة بالإعجاب، لباس أنيق أزرق أكحل كقلب المحيط التي أتى منه، به لمسة ترف قشتالية ومسحة من عراقة موريسكية تمثلت في حواف ذهبية منسوجة كحروف عربية ونقوش متداخله، بنطال ضيق ومعطف قصير ثٌبت في كتفه حرملة تدلت عن كتفه الأيسر، كان يَشعر بأن هذه الملابس تقيده انها أكثر ضيقا لتجعل جسده ممشدودا، لا ينقصه سوى حذاء جلدي طويل كالذي ينتعله النبلاء والقادة، بدل ملابسه مره أخرى واستلقى بالفراش يسأل نفسه: لماذا لم تأتِ ريتا حتى الآن... وجاءته الإجابة بطرقات سريعة يشوبها مرح على الباب الذي ما إن فتحه وجد طفل صغير متعرق الوجه تلعثم قائلا:

- سيد سانشو.. ريتا تبللغك أنها بإنتظارك قرب باب الدباغين عليك الذهاب بسرعة.

هذا كل ما قاله الصغير ورحل راكضا دون أن يذكر شيئا آخر، تعجب سانشو من فعل الصبي وما كان منه سوى اللحاق بالفتى المُسرع بين الطرقات.

مر بسوق الفضة ليختصر الطريق إلى حي الدباغين، زحام خانق وباعة يعرضون المشغولات الفضية من أطباق وأحزمة وقباع سيوف وأغمدة شيء أثار في نفسه الرغبة بالشراء، ولكنه اكتفى بالتجول وتفحص البضائع موزعا ابتساماته على الباعة المُستجدين بيع أي شيء له، لو طاوعهم واستمع لأسعارهم الزهيدة لفقد كل ماله هنا في ذلك السوق، كان يسير ببطء بفعل تكدس المارة حين رآها وأعجبته، قلادة من الفضة اتخذت شكل عصفورين يحتضنان حجرا أحمر، ستكون جذابة حين تتدلى على صدر ريتا، اشتراها دون فصال مع البائع الموريسكي الذي أخبره أنها فأل حسن وكانت ضمن كنز وجده أبيه بالقرب من برج الذهب المطل على نهر الوادي الكبير... أسطورة ربما خلقها عقل التاجر ليبيع بضاعته ولكنها أعجبته، رحل قابضا يده عليها حتى لا يطير العصفوران، صدره عامر بالبهجة والشوق لملاقاتها وروائح التوابل والاطعمة أشعرته بالجوع فاشترى كعكة محلاة بالعسل بعد أن غسل وجهه ورأسه بماء فسقية صغيرة تتوسط أحد الأحياء، وجلس يستظل بجدار انحسرت تحته الظلال هربا من شمس الظهيرة القاسية، وقبل أن ينهض ليكمل المسير ابتلع ما تبقى من الكعكة ولعق ما علق بأصابعه من سكرها، كان عليه الإسراع لملاقاة ريتا التي سلبت عقله، أخذ يسأل المارة عن حي الدباغين وبالفعل

ساعده بعض الموريسكيين بترحاب، وآخرون نفروا منه ولم يجاوبوه إلا بنظرات متفحصة، وحين اقترب من مدخل حي الدباغة وجد الصبي الذي أخبره بأمر اللقاء يتشاجر مع فتى آخر، لم يقترب منهما الناس مروا بجوارهما دون اكتراث لأمرهما، كانا يتصارعان بعنف وقسوة، فيض من الركلات واللكمات، يتدحرجان بالأرض مثيرين الغبار وكل واحد منهما لا يفلت خصمه، تدخل وفصل بينهما ممسكا بالصغير الذي كان يحاول التملص وسانشو يسأله:

- لماذا تتشاجران.

أجاب الصغير بفظاظة:

- انه أخي فيليبي... ما شأنك أنت بنا.

انحنى محدقا بوجهه باستغراب، وحين عاد ببصره إلى حيث يقف الآخر لم يجده، أو بالأحرى كان يركض مبتعدا عن المكان، فعل زاد من دهشته حين عض الصغير يده بقوة فما كان من سانشو إلا أن افلته، ذلك الجرذ الضئيل آلمه وكأن هذا ما ينقصه اليوم، كان يتفحص أثر العضة حين جاءه صوت بائع الفاكهة القريب:

- ما كان عليك أن تفصل بينهما.. سيكون عليك الآن اللحاق بهما لإستعادة ما سُلب منك.

تحسس ملابسه وما لبث أن عقد حاجبيه، لقد كان الرجل محقا سرقت سُرة نقوده وقلادة ريتا، أخذ يبحث في أرجاء المكان بعيناه عنهما، اختفيا ولم يعد لهما أثر بالمكان، وبائع الخضروات السمين يضحك مستطرداً:

- اتبع ذلك الدرب خلفهم... ماذا تنتظر يا رجل، ستجدهم في حي الغجر... ولكن عليك الحذر من الثيران.

اكمل جملته بقهقه جعلت سانشو يستشيط غضبا، تمنى لو يعود ويكيل له الضربات حتى يكتم ضحكاته السمجة، هرول بالاتجاه الذي سلكه الفتى الكبير، هذا ما كان ينقصه في ذلك اليوم، لم يتبق على الحفل سوى سويعات ظل يبحث عن الصغيرين حتى صار على أعتاب ذلك الحي الغريب، الغجريات ينتشرن في المكان وطرقات الحدادين لا تتوقف، الدروب الضيقة ممتلئة بالناس مزيج من الألوان والروائح، عيون مكتحلة وقبعات كبيرة من الخوص، أسماك عفنة يتهافت عليها الذباب، شحاذون وعاهرات والفتى الصغير... اصطدم بصراهما فركض الضئيل متحاشيا المارة وسانشو خلفه لا يأبه بمن يدفعهم عن طريقه، الشوارع أكثر ضيق عن غيرها بالمدينة، واللص يركض كجرذ يعرف كل خبايا المنطقة، يندس بين الناس ويقفز فوق الصناديق والأجولة، ذكره بأيامه الأخيرة في لشبونة، ولكنه لم يسرق أحدا...

لهث وشعر بانقباضات تغزو صدره، لم يركض هكذا منذ زمن بعيد والمسافة بينهما صارت أقل ثم توقف الفتى بغتة أما ممر مسقوف تكومت في جنباته أجولة عَلف وقش، كان يسعل بعنف وانحنى مستندا على ركبيته بيداه، كان يتنفس بصعوبة مما جعل سانشو يقترب منه بحذر مبديا اللوم، حدثه الفتى بصوت لاهث ورائحة الروث تعبق المكان:

- ما كان عليك أن تأتي إلى هنا.

مع آخر حروفه فوجئ سانشو بضربة على مؤخرة عنقه، وكان ذلك آخر ما أحس به قبل أن يهوي في ظلام دامس...

***

كان ملقى على وجهه حين فتح عيناه ولم يجد سوى ظلمة حالكة وأرضية جافة مكسوة بالقش والتبن، بالتأكيد ليس هذا قبره.. وطنين الضجيج هذا ليس رثاء الأحياء له، القبور أضيق من ذلك المكان، ولا أحد يعرف ما حدث له ليرثيه بقليل من الكلمات، نهض مستنداً على الأرضية العفنة الجافة، تحسس موطن الضربة التي افقدته وعيه غمغم محدثا نفسه: هذا الشقي كان يستدرجني من البداية إلى هذا المكان.

لم يلبث في أفكاره كثيراً حيث دلف الضوء بعد أن هزم

صرير باب حديدي أزيح جانبا، وهج النهار يغشى عينيه، والضجيج يرتفع أكثر... أرض رملية صفراء في نهاية الممر، بخطوات حذرة راح يخطو للأمام والرؤية تتجلى رويداً.... حلبة شاسعة مرتفعة الجدران محاطة بمئات من الناس، لم يكن وحده هناك آخرون خرجوا من غرف احتجازهم... والعامة يصرخون ويهللون، صخب وضجيج وهتافات وبرز الموت في هيئة ثور أسود سَن للتو قرنيه، ماذا فعل ليحدث له كل هذا في يوم من المفترض أن يكون الأفضل في حياته... بين الحضور كان غارسيا ودييجو والأخير يربت على ظهر الأول، يبتسمان بخبث ودييجو يشير له بتحية نصر... بحث عنها في أرجاء المكان حتى أفاق على صراخ رفاقه بالحلبة، كانوا ثلاثة وهو رابعهم ركضوا في كل الأنحاء يطاردهم الثور العظيم وسط الضحكات والصيحات الصاخبة، الأجساد تتطاير وترتطم بالأرض وتقلص العدد... كل ما عليه هو الهرب، يتفادى الثور الهائج برشاقة أرهقته رغم صيحات الإعجاب، مر إلى جانبه مطلقا خوارا غاضب، ثم ذهب ليفرغ غضبه في جسد أحد الجرحى، دهسه ونطحه وراح يقلبه أمام نظر سانشو والرجل المتبقي على ساقيه، بال الفحل على ظهر الصريع وراح يحك حافره الأمامي بالأرض الترابية، سيبدأ هجومه من جديد، ساعد سانشو الجريح الآخر رفعه ليقف إلى جواره، تألم الرجل وصرخ،

الأمر الذي زاد من هياج الثور، انقض على ثلاثتهم في البدء قذف الأول بعيدا بعد أن ارتطم به، سمع سانشو صوت تهشم عظام الرجل، حاول أن يركض مبتعداً وهو يحمل الجريح، تعثر وهوى أرضا وكان في ذلك نجاته، حين سقط هو والرجل مر الثور طائراً من فوق جسديهما مندفعاً، لم ينج الجريح كُسر عنقه، أما سانشو فكان أكثر حظا منهم جميعا، نهض وسط الغبار وعيناه تدور بالموتى من حوله، نفس المصير ينتظره، والناس تصفق وتهلل والفحل الهائج يدور في مكانه بخيلاء المنتصر، الدم ينساب على وجهه من جرح بأعلى جبهته، نهر من دم على وجه مغبر بالتراب، ما من سلاح معه ولا سبيل للخروج من هنا سوى أن يموت هو أو الثور... توقف الهواء وتجمد كل شيء من حوله، فقط غريمه الأسود المخضب بالدماء يتحرك ببطىء ويعدل وضعيته استعداد للهجوم، الضجيج خفت ثم تلاشى، وقطرة من دمه فارقت لحيته وسقطت لتعانق الأرض في اللحظة التي ركضا باتجاه بعضهما البعض... وما حدث تالياً كان كاف ليسود الصمت.

في اللحظة التي كاد الثور أن يغرس قرنيه بصدر سانشو، قفز الشاب متدحرجا على ظهر الفحل الغاضب، وقبيل هبوطه على الأرض كان الثور يرفس بساقيه الخلفيتين الهواء لعله يصيب مصارعه الفَتي، ما إن لامست قدما سانشو

الأرض حتى ركض باتجاه الجدار الحجري المرتفع، المسافة تتقلص ومن خلفه خوار ووقع حوافر تقترب أكثر... كانت المرة الأولى التي يرون فيها شخص يقوم بتلك الحركة العجيبة، فغرت الأفواه وحملقت العيون وسانشو يركض على الجدار خطوة.. اثنان.. ثلاث وفي الرابعة كان يحلق في الهواء متكوراً على نفسه والثور يمر ليرتطم بالحائط بعنف، زلزلت الأرض بفعل الارتطام القوي وهاج الجمهور بالتصفيق والصياح، وسانشو يقف على قدميه غير مصدق لما فعل... كان الأمر أشبه بحلم لم يتخيل تحقيقه ومازال عليه أن يخرج، بحث بعينيه عن غارسيا وديجو وكان للثور رأي آخر... زادته الصدمة جنونا ويبدو أن سانشو لم يتوقع نهوضه مرة أخرى... واجهه بعينان تفيضان بالغضب وأنف ينزف دما وقرن كُسر طرفه، جولة جديدة عليه خوضها وكان الثور أسرع من تفكيره... اندفع فجأة ليطيح به أرضاً، ضربة قوية آلمته من حسن قدره أنه القرن لم يُغرس بجانبه، تدحرج متوجعا ويداه تتشبث برمل الحلبة الأصفر، حاول النهوض متكئا على جسد أحد القتلى، وصافرات الإستهجان وتشجيع للثور لينهي حياته... كانوا يصفقون له منذ قليل والآن تهدر حناجرهم بالموت.. إنها النهاية ووقع حوافر الثور قادمة من خلفه... لم يرى سانشو ما حدث خلفه في تلك اللحظة... فقط سمع صوت تهشم وخوار وصمت الجمهور..

وحين التفت رأى ملاك الرب أرسل في تلك اللحظة لنجدته، جواده الأندلسي الرمادي يقف على قائمتيه الخلفيتين وقد عُقد ذيله، على متنه كانت ريتا وشعرها الأسود يتطاير هتافات متتابعة: ماتادور... ماتادور.. ماتادور، حماسة ملأت قلبه وهو يشاهدها تلوح له بالإسراع... أفاق من سباته وبطرف عيناه لمح الثور يركض منقضا عليها وفي ظهره ثُبت رمح يُدميه، كان موجوعاً رغم حركته المفاجئة لجذب الثور بعيدا عنها، فشل سانشو ومر الفحل المجنون بجواره منقضا على الجواد، ولكن ريتا ابهرته مجددا... لكزت الجواد فقفز بالهواء بمهارة لم يرها سانشو خلال الفترة التي قضاها معه يتنقلان بين مدن وقرى الأندلس، كان الجواد يعرف ما يفعله وهي كانت فارسة لا مثيل لها، ألقمت ظهر الثور رمح ثاني فراح يركض مبتعداً، نادته:

- سانشو..

هرول باتجاهها متغلبا على آلامه تشبث بالسرج واعتلى الجواد الجامح، صهل ودار حول نفسه براكبيه والجمهور مازال يهتف والثور يحاول تخليص الرمحين من ظهره، لم يكن على ريتا سوى حث الحصان على الركض ليطلق العنان لسرعته ويخرج من الباب الخشبي المفتوح على مصراعيه، في الممر المؤدي للخارج ركلت أحد الأشخاص حاول

إيقافهما، وما لبثا أن خرجا إلى رحاب إشبيلية.. قطعا الأزقة والدروب وعبير عطرها يزكم انفه بينما يحتضن خصرها برفق، كانت تقود الجواد بمهارة حتى بدأت خطاه في التمهل ثم توقف عند حافة النهر.. حيث التقيا أول مرة.

على شاطئ الوادي الكبير وبين العشب المرتفع، تمدد بعد أن غسل رأسه وشرب حتى ارتوى، مستلق وريتا تمسح بطرف ثوبها المبلل بماء النهر وجهه، أزالت أثر الدماء وما علق به من غبار، منهك.. اكتفى بالصمت وإسناد رأسه على فخذها، تفحصته برقة..كانت تخشى عليه من قسوة أناملها الرقيقة، لعبت بخصلات شعره المبلل وحدثته وهي تنظف جرحه لعل الحديث يكون دواء يخفف ألمه:

- كان علي أخذك للحلاق قبل الذهاب لهذا الحفل اللعين... كُنت بالسوق أبحث عن حزام وحذاء يليقان بك، حسبت أنك تنتظرني بالنزل فاتجهت إلى هناك وحينها رأيت فرناندو الصغير يجلس على جانب الطريق مطقطق الرأس حزينا، بالمناسبة هو قريب لي.. الغجر جميعهم أقارب بشكل ما، حين سألته عن سبب حزنه الشديد أخذ يلقي بالسُباب على أخيه الأكبر فيليبي ثم أتى على ذكرغارسيا ودييجو، لم يعجبه ما منحوه إياه جراء عمله معهم، استغلوه للإيقاع بشاب نعتوه بالموريسكي البرتغالي وضربوه على رأسه قبل

أن يسحبوه إلى حلبة المصارعة حيث سيتقاضون ثمن جيدا جراء وضعه مع الثيران، هكذا قال بصدق وبراءة ووجدت نفسي حائرة... الغضب والخوف سيطران علي، ولكني لم أعتد الهرب ليس من عاداتي، ولم يكن هناك أحد ألجأ إليه لمساعدتنا.. ذهبت للفندق بصحبة فرناندو لعلنا نجد شخصا قد يستطيع فعل أي شيء، ولكن حين يأست تذكرت حصانك الأندلسي، لم يخيب حدسي منذ المرة التي رأيته فيها وأنا أعلم أن دماءه نبيلة نقية، يعرف كيف يخوض قتالا بل ويعرف كيف يصارع الثيران وبالفعل كان عند حسن ظني به، ساعدني فرناندو الصغير على فتح البوابات الخلفية للحلبة والولوج إليها، أتعرف تلك المرة الثالثة التي امتطي فيها حصان، سنوات قضيتها هنا كبرت وترعرعت في هذا الحي وأعرف خباياه ولم أكن لأثق بأحد هناك ولولا وعدي لفرناندو بسخاء العطاء إن ساعدني لما كان سيفعل، ولم نقض كثيرا من الوقت حتى وجدت نفسي أقتحم الحلبة ممسكة برمحين سلبتهما من مدخل المكان، رأيت ما يفعله المصارعون من قبل وكان علي تقليد صنعهم... كل هذا كان لأجلك سانشو.

- ذلك الشقي الصغير أخبرني أنك تنتظريني عند باب الدباغين.

- لا تلمه لقد فعل ما أمره به دييجو مقابل بعض النقود لم يحصل عليها حتى، اتعرف مجرد التفكير في اختفائك عن حياتي سَبب زلزال كاد أن يدمر كل أمل بنيته في أحلامي، أتعرف ذلك الشعور بأن تجد روحا تشبهك وتفقدها؟! لم أتخيل أن يكون غارسيا ودييجو بهذا الشر أبداً.

اعتدل جالسا وتطلع بعيناها:

- سيكون علينا تلقينهم درس لن ينسوه.

ابتسمت فعانقها ومازال الألم يسيطر على جسده المنهك، همست بدلال بأذنه:

- جرح رأسك صغير.. ولن يمنعنا من حضور الحفل.

أزاح شعرها المتموج عن عنقها ولثم قبلة حانية قال بعدها:

- كنت أعرف أنك لن تدعي الحفل يفوتك.. فارستي.

- بالطبع هذا ما سنفعله ولكن عليك أن تستريح، وعدتني أننا سنستمتع.

ساعدته على النهوض وامتطاء الجواد، انتظر حتى تركب خلفه ولكنها استطردت:

- سأنهي بعض الأمور العالقة، ستجد حذاء جلديا فخما وحزاما يليق بك يا نبيلي الرائع، سانشو لا تخرج حتى آتي

لك.

انهت كلماتها بصفعة على فخذ الجواد الذي صهل، ومضى حاملا صاحبه إلى النزل، رغم الإيعاء كان عقله يعيد عليه ما حدث في الحلبة، اقتحامها للمكان ممتطية الجواد الذي أبهره بحركاته، لبث معه قرابة العام ولم يكتشف كل خباياه، ربت على عنقه بينما يمشي متهاديا بالدرب الضيق:

- أحسنت يا صاحبي.. يبدو أنك تستلطفها لهذا أخرجت كل ما عندك وهي على ظهرك.

في لحظة ما بداخل الحلبة خشى ألا يراها مجددا، ولكن محبوبته ستحارب العالم كله من أجله، أنقذته من الموت ومنحته فوق الحياة حياة.. وصل إى باب النزل وأخذ الخادم بلجام جواده، أما سانشو فظل لبرهة فوق صهوته ثم ترجل بصعوبة ممسكا بجانبه، حياه الرجل وهو يتفحصه مستغربا مظهره، كان متعبا.. جر قدميه إلى الباب وقبل أن يدلف التفت عائدا إلي حيث يقف الخادم، واسند يده على كتفه محدثا إياه:

- أريدك أن تسديني خدمة ولك ما ستطلب، سيكون عليك تجهيزه هو وجواد آخر، اختر أنبل فرس قد تجدها.

- اليوم؟

- لا بل سنخرج غدا بهما.

تعجب رواد المكان من حالة سانشو، يَعرج صاعدا الدرج وملابسه متسخة مغبرة، لم يبال بنظراتهم المتسائلة ودلف إلى غرفته، ظل واقفا يحدق في الفراغ قبل أن يلقي بجسده على الفراش متحسسا موضع آلامه، يوم غريب وشاق نجى فيه من الموت بفعلتها المجنونة، كان متعبا.. غط في نوم عميق أخذه إلى عالم الأحلام حيث لم يكن هناك سواهما، وحين فتح عيناه بمنتصف الليل أيقن أن ما حدث لم يكن حُلما، كانت إلي جواره تضع رأسها على صدره وذراعها يحتضنه، كانت إلى جواره وهذا أجمل ما في الحياة، أن تجد من يرعاك في آلمك ويبقى إلى جوارك في أشد الأوقات ظلمة، الإنهاك كان قد تملك منه ولم يشعر بها حين جاءت وغيرت ثيابه أو بالأحرى جردته منها، مسحت جسده بماء دافيء وتفحصت جرح رأسه، أغدقت عليه بمحبتها وكان هذا سببا كافيا ليتمنى إكمال ما تبقى من حياته مع أميرته الغجرية تلك الاندلسية الفاتنة، كان بحاجة لها وكانت تشعر في كنفه بالطمأنينة والسكينة.. في الصباح أيقظته واخبرته بوجوب رحيلها وعليه أن يتجهز للحفل، ستكون في انتظاره قبل المغيب في بهو الفندق.

***

قبيل المغيب كان لقاؤهما، غلفتهما الأنظار واقتبست القناديل القريبة من وهجهما ضيائها، كانت فاتنة في ثوبها الأخضر ذي الحواف البيضاء، وفوق أذنها اليمنى ثبتت وردة بيضاء وتدلى على جانبي رقبتها قرط طويل من حبات عنب فضي، شفاهها ازدادت توردا ووجها كالبدر في ليلة ظلماء، تحرك مروحة سوداء بأطراف أناملها ليفوح عطر فريد لامس روحه، بخطى بطيئة يشوبها عَرج اقترب منها، عيناه تشع بضي عجيب استحوذ على وجدانها وشعره الأسود اللامع مجموع في عقدة صغيرة خلف رأسه، الجرح بأعلى جبهته لا يكاد يُلحظ، ولباسه الأسود ذي الحزام والحرملة الفضية جعلاه نبيلا حقيقي، أنيق وزادته ابتسامته الرطيبة وسامة ورقيا، مد يده لها وهو يحني جذعه قليلاً للأمام، فضحكت ولم تفلح المروحة من إخفاء خجلها، رفعت يدها للأمام ليلتقطها طابعا قبلة رقيقة قائلاً:

- كم أنتِ جميلة سيدتي.

حاولت ألا تضحك مرة أخرى فخرجت حروفها متلعثمة:

- هذا اطراء سيد سانشو..

خرجا إلى باب النزل تتبعهما النظرات، وتفاجأت حين رأت الخادم يأتي بجواد سانشو وفرس أخرى ذهبية اللون تسير بخيلاء كرفيقها، تحسست ناصيتها وتفحصت خطمها

وخصلات شعرها الأبيض المُعكر بالذهب، كانت واقعة في غرامها نظراتها أوحت بذلك، غمز سانشو للرجل وسألها:

- هل أعجبتك.

التفت وعانقته هذا كان جوابها، وثغر الخادم انفرج مبتسما ليظهر ما تبقى من اسنانه، لم يدم العناق طويلا ساعدها على امتطاء الفرس وعدل ثوبها حين جلست، ثم ارتقى صهوة جواده بمساعدة الحارس، واتخذا الحصانين طريقهما إلى الحفل بخيلاء وفخر، كانا محل الاهتمام من المارة بالدروب الضيقة، لم يمرا بأحد إلا وحدق بهما، وحين بلغا الشارع الرئيسي توقف زوج وزوجته على جانب الطريق، اكتفوا بمشاهدتهما وعين المرأة ترثي حالها، لماذا لم تولد نبيلة كهذين الزوجين... وعجوز يبيع التين لوح لهما بقبعته قائلاً بمرح وحب:

- تحياتي لكما.. أدام الرب محبته بينكما.

درب طويل ممهد باللحج وعلى جانبيه تراصت الأشجار، الخيالة يجوبون الأرجاء، والعديد من المدعوين يسيرون بنفس الإتجاه، خيل مسومة وأنوف مرفوعة بشموخ، نبلاء حقيقيون زوجات وحراس، وسانشو وريتا بين كل هؤلاء تغلفهما الرهبة، كانت غير مصدقة لما هي فيه، ربما مازالت نائمة وما ذلك إلا حلم طويل.. عند البوابة جند صارم

يتفحص الوجوه، حدثها سانشو وعيناه تجوب الأرجاء:

- أتمنى أن نعثر على دي لافيجا مبكرا.

لم يتخيل أن الأماني صارت تتحقق بهذه السرعة، رآه يتوسط البوابة من الداخل منهمكا في حديث مع شخص آخر، وصارا على عتبة البوابة الكبيرة،هَرع الخدم نحوهما وامسكا بعنان الجوادين، نزل سانشو بروية كاتماً ذلك الألم الذي توطن بفخذه، بينما ساعد أحد الحراس ريتا على الترجل، حيته بابتسامة راقية واتجهت إلى جوار سانشو الذي بدى كنبيل حقيقي وهو يأخذ بيدها ليسيرا سويا باعتداد وفخر، هَم أحد الحراس بسؤالهما ولكن صوت دي لافيجا كان أسرع:

- سيد سانشو... كم من الجميل رؤيتك يا صاحبي.

عَبرا البوابة وابتسامة دي لافيجا تستقبلهما بترحاب، حيا ريتا برقي وأثنى على جمالها ثم أشار لهما بالسير معه للداخل، عّرج سانشو كان واضح كفاية ليلحظه الإنكا، ورغم اناقته كان الإرهاق باديا على وجهه، السير في حديقة قصر المورق كان اشبه بالسير في جنة خيم عليها ليل بهيج، برك الماء الجارية تراقصت على صفحتها انعكاس القناديل، وعبير زهور حدائقها يهيمن على الأرجاء، كانا مبهوران بما يريانه وتلك الحالة التي تهيمن على المكان، بهو القصر

ونقوشه العربية، الأعمدة الرخامية وحوائط الزليج الملون، والمدعون سادة إشبيلية ونبلاء قشتالة، يقفون في حلقات وتجمعات بأنحاء متفرقة من المكان، السيدات يتحدثن فيما بينهن بمرح باهت أما الرجال فكانوا أكثر صخبا، ضحكات وقهقهات إلى جانب أحاديث جانبية جادة، صخب ضاعت في حضوره ألحان القيثارات، اخذهما إلى أحد الأركان التي يشوبها الهدوء قائلاً:

- يمكننا الجلوس هنا..

جلس ثلاثتهم في صمت للحظات، ريتا تتهكم على الحفل الميت بينما تتفحص حركات النسوة، وسانشو المتعب يفكر هل سيجد سارة وابنتيها ليرحل مع ريتا الحالمة، أما دي لافيجا فاستأذنهما للحظات، نهض متوجها إلى قلب الزحام صافح رجل مهيب وتحدثا ثم مضى واختفى بين الحضور، تبادلا النظرات وريتا تقول بمرارة:

- قلت ستستمتعين بالحفل.. وها نحن نجلس كاليتامى في ركن بعيد عن الصخب.

مرة أخرى ظهر الإنكا حاملا كأسين، جاء وعلى وجهه ابتسامة بدت بلهاء لريتا، قدم لهما الكأسين قائلاً بصوته الهادىء:

- هذا عصير فواكه جيد.. أعرف أن الموريسكيين لا يشربون النبيذ.

جالت عينا سانشو بالأرجاء ليتأكد أن أحد لم يسمع صاحبه الذي استطرد:

- أتعرف يا سانشو.. أنا مبتهج لحضورك، كل هؤلاء الحضور لا أعرف منهم سوى قلة كانوا في البيرو والتقينا مرة أو مرتين.. بالمناسبة ستكون احدى بنات قريبتك هنا بعد قليل، أوفيليا جونزاليس أليس عذا اسمها؟

بهجة تجلت في صوت سانشو:

- نعم هي.. ولكن كيف.

- إنها زوجة أحد محققين ديوان التفتيش.. سيدة مرموقة ومبجلة بين نسوة إشبيلية، اختها آنا تزوجت تاجرا غرناطيا موريسكيا، ورحلت معه إلى غرناطة بعد عدة مشاجرات مع اختها، هكذا اخبروني.

- وأمهما؟! سارة.

- يؤسفني اخبارك إنها ماتت منذ عام. تقبل تعازي.

بدى الحزن على سانشو بينما كان يغرق في بحر أفكاره المتلاطمة، ربتت ريتا على ظهره بلطف والإنكا يردف:

- حاول حين تلتقي بها ألا تتفوه بأي شيء قد يجعلك موطن شك، الناس في هذا الحفل وجل هذه البلاد مهووسون بالإبلاغ عن المهرطقين واتباع الدين المحمدي.. دوما يهيمن على عقلي ذكرى آخر لقاء لنا قبل أن تطأ قدماي هذه الأرض، كنت أحسب حينها أني سأجد شيء مميزا هنا وأستطيع أن اصنع عالمي الخاص، ولكني فشلت حتى في الحصول على أصدقاء جدد، أنا غريب وسط مجموعة بائسة من الضباط والنبلاء يفضلون حكم العالم بالحديد والنار، وما جاء بي من مدريد لإشبيلية إلا ذلك الاجتماع الغبي الذي تقام هذه الحفل على شرفه، وكما ترى هناك العديد من الموريسكيين الأصل وجاؤوا كنبلاء للتصويت على قرار من شأنه قلب موازين هذه البلاد.

صمت لبرهة وبادلهم النظرات ثم أردف:

- هناك الكثير من القيود ستفرض على الموريسكيين.

- أكثر مما نحن فيه؟

- نعم سانشو.. إسبانيا عازمة على تطهير الأرض ممن ورثوها عنهم، الملك فيليب يرى أنهم قد يكونون خونة يساعدون العثمانيين والسعديين في الخفاء، ويرى في أهل غرناطة خاصة وكل الموريسكيين خطر كبير على كرسيه، يخشى أن يطعن من الخلف بينما يخوض حروبه ضد

اعداءه.

بدى التململ على وجه ريتا وهمست له بانها تريد التجول، اومأ سانشو برأسه وابتسم لها، نهضت وتابعها دي لافيجا بينما تسير على مهل بين النبلاء:

- رائعة ريتا... إنها تحبك ولكنها تحب الأجواء الصاخبة أكثر.

- نعم هذا الحفل لا يروق لها.

- لم تخبرني بما حدث لك؟؟ يبدو عليك التعب وذلك الجرح الدقيق، يبدو أنك خضت عراكا شرسا.

- وجدت نفسي بحلبة مصارعة ثيران وكان على مواجهة ثور عملاق، وفي النهاية كانت هي منقذتي.

- انها قصة حب أسطورية إذن.

- قصة عجائبية.. من كان يصدق أن سانشو البحار الموريسكي الفقير يجلس الآن بقصر المورق بين نبلاء قشتالة، بل ويحظى باجمل فتاة بإشبيلية.

- أنت محظوظ.. وريتا هذه هي تميمة حظك، لقد تغيرت كثيرا وهذا واضح جدا بما أننا تقابلنا من قبل وجلسنا سويا كثيرا، استطيع ملاحظة هذا التغيير ولهذا سأسديك نصيحة

لا تتخلى عن حب امرأة تحبك، ارحلا عن هذه البلاد واستقرا بمكان ما، ابحث عن أناس تشبهكما اذهب للحياة بعيدا.

- لا تريد ريتا الرحيل عن البلاد، إنها تحب هذه الأرض.

- حاول أن تقنعها لا تيأس.

- سيد دي لافيجا هل لي بسؤال خاص.

- بالطبع يا صاحبي.

- لماذا تركت البيرو وجئت لهنا.

حدق الإنكا بوجهه لبرهة ثم أشاح بوجهه إلي حيث تقف ريتا مع بعض النسوة، ثم نطق بصوت خفيض:

- كنت أهرب من الذكريات نحو واقع بدا أروع من بعيد، أنا غريق كبحار هشم الموج سفينته وظل يسبح حتى أنهك وابتلعه البحر، أعيش هنا على اسم والدي ومكانته السابقة، نعم أحسب من النبلاء وكبار الضباط ولكن لا رأي لي، فقط أنصت. ذات مرة أبديت رأي ونُعت باللقيط البيروفي، ولهذا دعوتك لهذا الحفل لأني وحيد في هذه البلاد، المرأة هي الوطن يا سانشو وأنت معك امرأة تستطيع قهر كل الصعاب.

- أخشى فقدانها.

- لهذا أخبرك بأن عليك الرحيل عن هذه الأرض، عش كل

يوم على أنه اليوم الأخير لك على هذه الأرض، استمتع بلحظاتك كلها، ولا تدع الكآبة تجد موطأ قدم بروحك مجددا.. استطيع أن أرى تلك السعادة بداخلك واظن انها هي السبب وراء ذلك، حاول اقناعها بالرحيل، إن كانت تحبك حقا ستذهب معك إلى الجحيم حتى.

- ربما أعود إلى لشبونة أو اشتري بيتا في قادش.

- سانشو أنت لا تفهمني، إن كنت مكانك سأذهب إلى البر الآخر، هناك في بلاد المغرب.

حرك رأسه مبدياً تقبل كلمات الإنكا قبل أن يقول:

- صرت مشتتا وعدتا تائه مرة أخرى، لا أعرف ما علي فعله، الأيام تمضي وريتا هي خَمرها، وكل من أقابله أفقده ويتحتم على الاختيار... هل نسير بدرب معروف نهايته مسبقا، أم أننا نصنع عالمنا ومصيرنا، هل علي البقاء وحفاظ على إرث أجدادي الذي لا أعرفهم وانجب أطفال يوسمون بالموريسكيين؟ مواطنون من درجة دنية، هل علي أن أبحر مهاجما اساطيل اسبانيا والبرتغال لأوقف إبادتهم للشعوب واستعبادهم، أم أرحل على غير هدى لمكان جديد وتكون بداية جديدة، ماذا لو كانت البداية غير موفقة وتعثرت؟؟ هي حياة واحدة ولا أعرف كيف أستغلها.

- انت ترهق نفسك بكثرة التفكير، لو كنت مكانك لاخترت أقصر الطرق إلى الراحة والهناء، النساء وحدهن قادرات على فعل ذلك، ريتا ستمنحك حياة مبهجة وستتغلبان على كل الصعاب، اسمع يا سانشو إن واقعنا يحتم علينا اختيار الأسهل فلا تكن عنيد وتختار طريق يصعب عليك إكماله، وها أنت وقد منحتك الحياة قبس من رغدها فترتدي ارقى الثياب ولك خليلة جميلة وتجلس داخل قصر المورق بصحبة بيروفي بعيد عن كل من عرفهم ذات يوم.

حديثهما الطويل لم يمنعهما من تتبع خطوات ريتا التي انهت حواراتها مع السيدات، جاءت إليهما بوجه ضجر لم تجلس وإنما وقفت لتحدث سانشو:

- هذا المكان يثير الضيق بداخلي.. هل نرحل.

سألها سانشو مستغربا:

- ماذا حدث؟

- لا شيء فقط أشعر بالاختناق من تمثيل دور النبيلة هذا.

ضحك دي لافيجا ونهض عن كرسيه قائلاً:

- أتقدم باعتذاري لكما.. كنت أحسب أن الحفل سيعجبكما.. هو خطأي أنا.

ابتمست ريتا بود، وسانشو يقف هو الآخر:

- لا عليك سيدي، المكان رائع والأجواء جميلة ولكن ريتا تحب الصخب.

تحدثت هي لتصحح الأوضاع:

- على ذكر الصخب هل تود أن تأتي معنا سيد دي لافيجا... سأريك الجانب الآخر من إشبيلية الساهرة.

في تلك الأثناء دلف إلى البهو شخص مُهاب، رداؤه الأسود وذلك الصليب الذهبي المتدلي على صدره عَرف عن مكانته، كان حليق اللحية شديد سواد الشعر إلا فوديه أبيضين كالثلج، بجواره كانت تسير سيدة طويلة القامة ترفل في ثوب ذهبي يحيط كتفيها شال أسود خفيف، اجتمع حولهما بعض النبلاء يبادلونهم عبارات الترحيب والود بينما كان الإنكا يشير إليهما برأسه محدثا سانشو:

- ها قد جاءت ابنة خالتك وزوجها القس كوزمو القاسي، هكذا يلقبونه.

- أعرف هذا الرجل جيدا، حقق مع بعض أبناء عمومتي وعندما حالفهم الحظ وغادروا الديوان... كانوا محمولين على الأعناق إلى مثواهم الأخير.

بدت نبرة صوت ريتا كئيبة مما جعلاهما يتبادلان النظرات، فسانشو على وشك مواجهة أقوى رجل عرفته إشبيلية منذ سقوطها، مكث الصمت إلى جوارهم لبرهة قبل أن ينفض سانشو عنه كل القلق والتوتر وينهض متجهاً إلي حيث يقف القس وزوجته، ومن مكانها تابعت ريتا خطوات الإنكا الذي مضى في إثر سانشو الواثق الخطى رغم ما يعانيه من ألم.

لم ينتظر حتى يفرغان من رد المجاملات والتحيات، تجاوز الجموع واقترب منهما وعلى وجهه ابتسامة عريضة، مد يده مصافحا القس بينما حيا أوفيليا بإيماءة من رأسه قائلاً:

- من الجميل رؤيتكما.. حين أخبرتني جدك إيسترا بأمر زواجك من المبجل كوزمو سعدت كثيرا، آه نسيت أن أعرفكما بنفسي.. أنا الربان سانشو الأشبوني، قريب لجدتك وحالما وصلت لإشبيلية عزمت على ألا تفوتني زيارة والدتك ولكني للأسف عرفت برحيلها عن عالمنا، تقبلي تعازي المتأخرة يا ابنة الخالة فأنا دائم الترحال.

قاطعه كوزمو بصوت هادئ رصين يشوبه الشك:

- عفوا.. لم أسمع عنك من قبل ولكن لكنتك برتغالية، أليس كذلك.

هنا تدخل الإنكا دي لافيجا بالكاد كان وصل إلى مكان

وقوفهم:

- الربان سانشو بحار عتيد، قابلته في الكاريبي وله العديد من الرحلات بين هافانا واسبانيا وحتى تلك المستعمرات البعيدة في بحر العرب وشاطىء الهند، انه خليفة البوكيرك وكولومبس.

منحه كوزمو ابتسامة باهته تفحص بعدها سانشو:

- سيكون على السيد سانشو أن يقص علينا بعض من مغامراته.

- بالتأكيد هذا شرف لي أيها المبجل.

توقف سانشو عن الحديث حينما اقترب رجل وهمس بأذن القس الذي ما لبث أن حدثهم:

- حسنا شرفت بمعرفتكم أيها السادة، واظن أن لنا لقاء قريب، حبيبتي أوفيليا استمتعي بالحفل ساتغيب لبعض الوقت مع الدون دي مندخار حاكم غرناطة، فالرجل قطع كل تلك المسافة للقائي ووجب عدم التأخر عليه.

رحل المبجل كوزمو عن المكان محاطا بثلة من النبلاء ومن بعده الإنكا دي لافيجا تاركا خلفه سانشو بصحبة غادته أوفيليا، تلك الحسناء ذات الثوب المحتشم والعنق الطويل،

كان بها قبس من قسمات جدتها، العينين والأنف والحاجبان، وكأنها هي في زمن مضى، كان سانشو يتطلع إليها شاردا حين باغتته بحديثها:

- سيد سانشو... لم أسمع أن أحد أقاربنا يعيش بالبرتغال ولم تقص أمي ذلك علينا من قبل، ومن العجيب أن نلتقي هنا.

- ربما لم تأتي فرصة لذلك ولكن ها أنا هنا وأمامنا الكثير من الوقت والحكايا لأرويها على مسامعك.

- أتمنى ألا تكون مملة، فأنا أكره تلك الحكايات عن الماضي التليد وما كانت امي دائما ترويه عن بطليوس وجدتي واجدادها، اجدها مضيعة للوقت ألا توافقني في ذلك.

اوما سانشو برأسه إيجابا، أحس أنها الشخص الخطأ ربما ليست هي من يبحث عنها، أو هي أوفيليا بالفعل ولكن ليست كما توقعها، انها سيدة ذات أنفة وغرور تتحدث بروية وتجلي عن زوجها وعمله في ديوان التحقيق، وعن هؤلاء الموريسكيين الذي يجب عليهم الإنصياع لتاج قشتالة أو الرحيل، طالما انهم يرفضون كل محاولات التقريب بينهم وبين القشتاليين، تفاخرت بكونها نجحت فيما فشل فيه آخرون وها هي تحظى بمكانة ورفعة رغم أصولها المتدنية، سألته عن مكان إقامته في إشبيلية وهل يحتاج أي مساعدة

في شيء ما، وما الذي أتى به للمدينة، إجاباته كانت قصيرة وهي كان تستفيض في الحكي... كانا يتحدثان ويده تتحسس مفتاح بيت جدتها، شيء ما بداخله حثه على عدم تسليمها إياه، ابحر بحديثه معها إلي أفاق بعيده وشرد مع سماعه لحكايتها عن أختها آنا التي نعتتها بالمارقة، كان يفكر بما حدث بينهما لتقول على اختها هذا اللفظ، فَضل ألا يسألها وما لبث أن افاق من شروده على صوت ريتا التي اقتربت وعلى وجهها ابتسامة خلابة:

- عذرا.. سانشو هل سنبقى كثيرا؟

رمتها أوفيليا بنظرة متفحصة بينما مد سانشو يده لتمسك بها خليلته قائلاً:

- سيدة أوفيليا... سرقنا الوقت ونسيت تقديم ريتا خطيبتي.

- تشرفت بلقائك.

هكذا قالت ريتا ولكنا لم تحصل سوى على ابتسامة باردة التفاصيل من أوفيليا قبل أن تسألها:

- هل تقابلنا من قبل؟

- ريتا.. ولا أظن اننا تقابلنا من قبل.

- اسم جميل يليق بغجرية.. حسنا سيد سانشو يبدو أن لقاء آخر سيجمعنا قريبا إن قبلت دعوتي للغداء، يوم الأحد القادم قد يكون مناسب لك.

- بالتأكيد سيدتي سيكون يوما مميز.. مازال هناك الكثير لأقصه على مسامعك.

تحيه صامتة كانت كافيه لتنهي الحديث وتمضي إلى زمرة من النسوة يقفن على مسافة قريبة، لم ترق لريتا وبدى الغضب جليا على قسمات وجهها الجميل، انتظرت حتى اعتدل سانسو وتطلع إليها فقالت بحدة:

- كيف سارت الأمور مع تلك المتغطرسة؟

- أسوء مما كنت أتوقع، إنها تكره جذورها وأسلافها وكل ما يمت لهم بصلة.

- لم ترق لي نظراتها وتفاعلها معك في الحديث، إنها أشبه بأفعى جميلة المظهر.. صدقني استطيع معرفة ذلك.

- إنها مجرد امرأة تريد ان تعيش حياة ترف.

- لا سانشو انها ليست كما تظن، أعرف ذلك النوع من النساء.

- ربما مخاوفك هذه بفعل الغيرة.

مالت برأسها متطلعة إليه ثم دارت حول نفسها في حركة مباغتة، تطايرت اطراف ثوبها وجذبت انظار الحضور، ثم مالت على أذنه قائلة:

- ملكت قلبك وانتهى الأمر أيها البحار المغرور.

جاءهما دي لافيجا بوجه بشوش وما إن صار بجوارهما سأل ريتا:

- هل أعجبك الحفل الآن؟

مطت شفتيها:

- مازلت أصر على أن هناك حفلات أكثر روعة وصخب من هذا المكان الكئيب.

- سنذهب إذن لقد وعدتني بهذا..

هكذا قال قبل أن ينقل بصره لسانشو مستطردا:

- كيف تقبلت أوفيليا الأمر؟

- لا تريد شيئا يذكرها بجدتها او أمها وأختها... لم أخبرها بشأن إرث جدتها، وقد دعتني للغداء يوم الأحد القادم.

- أتريد نصيحتي؟؟ لا تذهب. كفاك بحثا.. هذه المرأة لن يأتي من خلفها سوى كل شر.

بدى الظفر في عيني ريتا وهي تنظر لسانشو المرتبك:

- ولكن... مازالت آنا في غرناطة هكذا عرفت ويبدو أنها تتبع ديننا لهذا وقع الخلاف بينهما.

- سانشو انس أمرهما.. ولا تذهب أبدا لغرناطة.

تدخلت ريتا وأمسكت بيده قائله:

- سانشو سأذهب معك إلى أي مكان تريد... ولكن دخول غرناطة في هذه الأوقات يشبه الدخول لعش الدبابير... والآن لنذهب ونحتفل وربما ننظر في الأمر بعد حين.

خرجا من قصر المورق بصحبة دي لافيجا، والليل يهيمن على شوارع إشبيلية الخاوية، اتخذوا سبيلهم إلى خارج أسوار المدينة تقودهم ريتا التي كانت تعرف الدروب جيدا رغم الظلام، الهواء عليل وفي الأفق البعيد بدأ وهج في الازدياد كلما اقتربوا، وصوت طبل وعزف تناهى إلي مسامعهم تخبرهم بأنهم وصلوا للمكان المنشود، مُخيم الغجر الرُحل على شاطئ الوادي الكبير... عربات وخيام وخيول، ضحكات وهرج وأقداح شراب ورقص في كل جنبات المكان، وريتا بالكثير من الترحاب والحب، المرح وجد طريقه إلى أرواحهم بينما كانت تتحرك بين النسوة تحتضنهن فيما تدور بينهن أحاديث قصيرة تفيض بالبهجة والدلال، العزف مستمر

وراقصوا الفلامنكو لا يتوقفون عن ضرب الأرض بكعوبهم، الفساتين المزركشة المتلولة تتمايل مع الأجساد الناعمة للراقصات والقيثارات تتسارع أكثر وتغير اللحن، وذلك الشقي الصغير - فرناندو - يجلس متابعا الحفل الراقص بعين نصف نائمة، ما إن رأى سانشو ارتبك وكاد أن ينسل بين الجموع ولكن سانشو كان أقرب، وقف إلى جانبه واضعا يده على كتف الصبي:

- انت فرناندو أليس كذلك؟

اومأ الصغير بالإيجاب دون أن ينطق، تظاهر بمتابعة الرقصة وسانشو يستطرد:

- لا يسعني سوى شكرك لإخبارك ريتا بأمر الفخ الذي قدتني إليه... وأنا مستعد لأن اسامحك مقابل أن تعطيني ما سلبته مني في السوق.

- لقد أخذ أخي الأكبر المال كله..

- لا أتحدث عن المال يا فرناندو بل القلادة.. سيسعدني أن تعيدها لي وإلا أخبرت ريتا.

رمقه الصبي وقد ضاقت حدقتا عيناه، وما لبث أن أخرجها من جيبه قائلا:

- لم يرد أحد شرائها إنها ليست أصلية حتى.

ربت سانشو على رأسه بعد أن تلقفها ومضى إلي حيث يجلس الإنكا دي لافيجا وحيدا يشاهد العرض، ما إن استقر بجانبه فتح يده وأخذ يتطلع للقلادة وعلى وجهه بدت بسمة شغف ورضا، ألقى بعدها بجسده للخلف ليستلقى على الوسائد الخشنة المصنوعة من وبر الغنم..

- أنت هائم بحبها يا سانشو.

كلمات الإنكا ايقظته من لحظة حُلم راودت عقله، أجاب وهو يضم قبضته على القلادة ويضع يده موضع قلبه:

- لا أعلم ماذا فعلت بي.. أهذا ما يسمى الحب؟

- آه الحب يا صاحبي، ربما لم يَمس قلبي من قبل ولكني استطيع رؤيته في بريق عيناك كلما نظرت إليها، أستطيع أن أرى ما يفعله الحب بالآخرين، الحب حياة ورغبة في الخلود بجوار المحبوب، لا شيء في العالم يضاهي حبا صادقا يسكن ثنايا القلب.

اعتدل سانشو جالسا وأخذ يتطلع بريتا الواقفة في الناحية الأخرى مع بعض النسوة:

- بداخلي يقين أننا التقينا لسبب، ولا أدرى إن كان القادم

سيكون جيدا أم لا ولكن كل ما أريده هو أن تبقى ريتا إلى جواري، نتقاسم الحياة سويا، هي تحب تلك الأرض كما احبتها سمية وسعد، وكما كان هؤلاء الذين تربيت معهم وكانت نهايتهم بديوان التفتيش.

- سانشو.. ابتهج يا رجل نحن في حفل حقيقي، انسى كل ما مضى نحن أبناء تلك اللحظة الجامحة، أرأيت حفل قصر المورق كيف كان كئيبا ومليئا بالمجاملات الباهتة، لكن هنا الكل يتصرف وفق طبيعته، كما كان أهلي في البيرو قديما، أجد في تجمع هؤلاء القوم مالم أجده في قصور قشتالة الموروثة التي تبث جدرانها الحزن والغم رغم جمال طابعها ورونقها الأندلسي منازل البيرو ايضا بُنيت على الطراز الأندلسي، وهو ما جعلني أوقن أن ماضيكم باق مادام لكم ذرية تذكر ذلك.. وتلك فرصتك يا سانشو أن تصبح زوجا ثم أبا.

- كنت حدثتها عن الزواج وقالت نؤجل الحديث لوقت آخر.

- وها نحن في الوقت الآخر وليس هناك أجمل من تلك اللحظة التي تتزامن مع ذلك العزف الغجري.

تخطت حلقات الجالسين برشاقة ودلال وثوبها الفاخر يجذب أنظار الجميع، جلست أمامهما وعيناها المكتحلة تطلع لسانشو بشغف جلي، دام الصمت لبرهة قبل أن يقطعه الإنكا:

- وجب شكرك ريتا على الحفل الرائع.

رفعت رأسها بشموخ ضاحكة:

- هذا من دواع سروي سيد دي لافيجا، أن الحفل أعجبك.

تبادلت النظرات مع سانشو في صمت طويل فلم يجد الإنكا سوى الإستئذان سبيل لتركهما وحدهما:

- حسنا سأذهب وأبحث لي عن شراب وربما خليلة.

حياه سانشو بإيماءة بينما غمز دي لافيجا من خلف ظهر ريتا، أثارت حركته الضحكات في قلب سانشو مما جعلها تلتفت بإستغراب لتجد الإنكا قد ابتعد حيث يجلس مجموعة من الرجال يشربون ويتضاحكون، حين عادت ببصرها إلى سانشو اصطدمت بشفاهه وقبله نهمة راح يلتهم فيها شفاهها، أخذتها الفجأة وشعرت ببرودة وقشعريرة تغزو جسدها، كان جريئا في فعلته وأحبت ما فعله بل هامت في تلك اللحظة ولحن القيثارة يمنحهما الإذن بالتوقف. تراجعت بروية وعيناها تتفصح قسمات وجهه، تغلبت على خجلها ومررت اصابعها على لحيته الخشنة:

- سانشو.. أنا مغرمة بك. هل تعرف ذلك الحد الفاصل بين الجنون والشغف لقد تجاوزته معك. ولا سبيل للعودة لما

كانت عليه حياتي من قبل.

- وأنا لا أريد من تلك الحياة سواك ريتا.

اغرورقت عيناها بالدمع الممتزج بكحلها بينما كان يبسط يده أمامها، حدقت في القلادة ذات العصفورين وابتسمت وهي تمسح دمعها، ومدت اناملها لتأخذها ولكنه أغلق يداه عليها:

- ريتا هل ستبقين معي مهما حدث؟

- أنا معك سانشو الآن وغدا وحتى نهاية العمر.

عناق دافئ علق بعده القلادة برقبتها المرمرية، وتدلى العصفوران، حديث صامت دار بين عيناهما حتى تغير اللحن، كان هادئ ولكنه كاف ليبث بوجدانهما الكثير من الشجن والألفة والدفىء، أخذت ريتا بيده ونهضا ليتوسطا الجموع، ورغم زحام الراقصين حولهما شعرا أن لا أحد سواهما على هذه الأرض، يرقصان ويدوران لم يرقص من قبل ولكنه جارى حركاتها المليئة بالشغف والحب، تعانقا وحولهما هالة متوهجة بثت في نفوس الحضور الكثير من البهجة والحميمية، زوجين متناغمين والإنكا يجلس في ركن قريب يشاهدهما وقد ناوله أحدهم قدح شراب، نبيذ مخمر على طريقة الغجر، مشروب قوي المذاق كان كاف لجعله ينهض

مع احداهن ويبدأ الرقص.

3

ريتا

لم تكن تلك الليلة في إشبيلية سوى حلم عابر كنسمة برد بصيف حار، في الثلث الأخير من الليل أنهكت الأوتار وترامت الأجساد فوق بعضها، الأخلاء والرفقاء والأحباء انصرفوا إلى خيامهم وعرباتهم، توقف العزف تماما وخمدت النيران، والإنكا حظي بغجرية حسناء حملها معه إلى حيث يعيش.. ودعهما على أمل اللقاء باليوم التالي كان يتأرجح ولكن الغجرية أحاطت به لتثبته فوق صهوة جواده الأصيل، وبينما كان المخيم يغط في النوم سحبت ريتا سانشو من يده إلى حافة النهر... استلقت وكذلك فعل محتضنا يدها وعيناهما تراقب مخاض الفجر الآتي من بعيد، النجوم تتدثر بغطاء وردي جامح والليل ينحسر رويدا حدثته:

- حين كنت صغيرة قالت لي خالتي أن من يرحلون عن تلك الدنيا يبقى أثرهم في السماء، نجوم تنير ظلمة ليالينا، ولطالما رأيت أن أبي هناك يلمع ويشع... يسمعني وإن كان لا يستطيع تقديم شيء لي، كان يهوديا سيء الحظ وجدوه تائها هائما يبحث عن ملاذ وقد فقد أهله، صبيا بالكاد يبلغ أحد عشر عاما ضاع عن أهله الذين رحلوا عن إشبيلية بعد

سنوات من فرض التنصير الجبري، لم ينسى من هو ولا ديانته وإن كان يعلم منها فقط شذرات... ومنذ وجده الغجر صار منهم يرتحل معهم وهكذا تعرف على والدتي.. كانت تصغره بخمس سنوات وتربيا سويا، أحبها وعانى كثيرا حتى تزوجها رغم المصاعب ولكن الأحلام لا تتحقق بتلك السهولة، دوما هناك ثمن ندفعه.. ماتت أريادنا - والدتي - بعد أشهر من والدتي، الأمر كان صعب عليه ولم يتحمل خسارتها وقد تعاهدا الحياة والموت معا... وذات يوم رحل ولم يعرف أحد عنه شيئا، وكان على خالتي رعاية رضيعة أخرى إلى جوار أبنائها، هي أم غارسيا ودييجو قريب لزوجها، اخبرتك من قبل أننا الغجر كلنا أقرباء بشكل أو آخر... ربما لدينا بعض الحرية عن الموريسكيين ولكننا سواء في القهر والخوف، ربما يتحاشى ديوان التفتيش الاقتراب منا ولكن هذا لا يمنع أن هناك الكثيرين دخلوا إلى محاكم الديوان ولم يخرجوا... أتعرف في تلك الليلة التي رأيتك في النُزل.. تغير كل شيء يا سانشو. مُحيت أحلام قديمة وحل محلها أماني جديدة، كان دييجو قد طلب الزواج مني ورفضت ولكنه لم يتوقف عن الطلب وفي هذا اليوم كنت في قمة يأسي حتى رأيتك. إنه يكبرني بعشرين عاما سكير طوال الوقت، هذا لا يمنع أنه عازف ماهر ولكن ما فعله بك هو وغارسيا جعلني أكرههما.

قبضت على يده قبل أن تتعانق اصباعهما، زفرة طويلة

اتبعها صمت قطعه زقزقة العصافير معلنة عن قدوم الفجر، حلقت الأسراب فوقهما مئات الأجنحة تخفق بينما ريتا تستطرد بصوتها العذب:

- اعتقدت دوما أنني إحدى تلك الطيور الغريبة الزاهية الألوان القادمة من العالم الجديد، تغرد بحزن داخل أقفاص ضيقة من خيزران، كنت وحيدة رغم من يحيطون بي، كثمرة ناضجة يتمنى الجميع قطفها والحصول عليها، لم يأبه أحد لما أريد... فقط كان علي تأدية حركات مقابل عدة بيزوهات، رغم كل ما في هذه الأرض من آلام وظلم إلا أنني احببتها، وودت التجول بكل انحاء الأندلس.. هل تعدني أن نفعل ذلك؟

- قبل أن أعدك، سأخبرك أمراً... قبل أن أعرفك كنت ضائعا تائها وهناك المزيد من الكلمات التي تصف حالتي قبل لقاءك، فقدت الكثير من الأصدقاء بل فقدت كل من عرفتهم يوما ولم يبق سوى أنت ودي لافيجا... كل من قابلته ترك بداخلي أثرا، ودت الرحيل عن هذه الأرض فأنا غريب هائم لا يعرفني أحد حتى وجدتك وخضنا سويا غمار الحب، من كان سيبحث عني إن مت في تلك الحلبة ودهس ذلك الثور الهائج أضلعي ليحطمها ويطحن قلبي.. من كان سيبالي إن اختفى سانشو عن هذا العالم؟ حتى رأيتك تقتحمين المكان..

ريتا كل ما أريده أن أبقى معك، وكل ما أستطيع فعله هو أن أعدك بالتجوال في الأرض التي احببتها انتِ وخالتي سمية وسعد القرطبي... الآن فقط فهمت لما علي أن أحب هذه الأرض.

- لماذا؟

- لأنك خلقتِ من ثراها، إنها ارضنا وتلك المدن هي بلادنا وإن كان الزمن قد بدل سكانها فلنا فيها تاريخ وقبس من أرواح أسلافنا... أعدك أن نتجول بكل أرض الأندلس من شانت ياقب إلى سرقسطة بالشمال ومن لشبونة إلى بلنسية... سنخوض غمار الحياة سويا وسنتجول بأزقة غرناطة ونقطف من أشجار رمانها الثمار، سنذهب إلى الميرية ومالقة وطليطلة، سنزور قرطبة وسيكون لنا منزل هنا في إشبيلية على حافة ذلك النهر الشاهد على لقائنا الأول.. كنت استمع لقصص البحارة عن الحب والزواج وانجاب الأطفال وأقول هذا شيء مبالغ به، ويبدو أنهم وسُمية كانوا محقين حيال هذه الأمور... ريتا هل تتزوجيني؟

- سانشو، حين أكون معك انسى كل شيء وهذا ما أريده منك، انسى كل شيء سيء حدث لك، حياتنا ابتدت للتو ولدنا من رحم المصاعب والقادم سيكون أجمل طالما كنا

معا.. نحن زوجين بالفعل ولم يبق لنا سوى مراسم بعدة طرق وفق شرائع مختلفة.

- غدا سأعطي أوفيليا ما أرسلتني به جدتها وبعدها نمضي لحال سبيلنا.

- لا أرتاح لهذه السيدة وزوجها.

- حتى أنا ولكن دعيني ألقى عن كاهلي هذه الوصية التي تثقل خطاي.

لثمت خده بقبلة سريعة اعتدلت بعدها جالسة:

- هل نسبح الآن قبل أن ترتقي الشمس لصدر السماء.

كانت فكرتها رائعة، خلعا ملابسهما الأنيقة وخاضا بمياه النهر الجارية، ينثران الرذاذ ويضحكان، يحتضنها وتحاول السباحة هربا وتملصا منه، كانت مهجة قلبه وكان روح الحياة التي دبت في أوصالها... خرجا يقطران ماء يرسم خلف خطاهما درب مشياه سويا، امتطيا جواديهما وانطلقا إلى النزل ومن خرج مبكرا من أهل المدينة كان يتابعهما باستغراب، خدم الفندق حيوهما بابتسامات مرحة وصعدا الدرج بملابسهم المبللة دون أن يأبها بحنق صاحب المكان، وفي الغرفة الصغيرة احتنضهما الفراش، تقوقعت بداخل حضنه كرضيع حديث الولادة، وكذلك هو... وجدت الأمان

بين ذراعيه فنامت ورأسها على صدره، ظل يتطلع إليها ويداعب خصلات شعرها المبلل حتى غفى هو الآخر.

حل المساء واستيقظت هي قبله، طبعت على جبينه قبله ثم انسلت من بين يداه إلى طرف الفراش، مضى النهار بأكمله وهما نائمان، ملابسها الداخلية المنشورة قرب النافذة لم تجف بعد، وذلك الثوب الفاخر لم يعد يليق بتلك اللحظات الجميلة في غرفته، بحثت بين ثيابه على شيء يليق بها، وجدت كتاب أصفر الصفحات كتابته عربية، لا تستطيع القراءة ولكنها تستطيع التمييز جيدا بين القشتالية والعربية، مفتاح نحاسي وصك ملكية مكتوب باللغتين مختوم بعدة أختام، وضعتهم في مكانهما واختارت قميص أسود زادها جمالا، جمعت شعرها بشريط من قماش أحمر وجعلت من حافة النافذة مجلسا لها تطالع السماء وبيدها كوب ماء، الخيرالدة تتشح بالظلال وتهيمن على الأفق، كانت تفكر في مستقبلهما حين سمعته ينادي بإسمها، التفت إليه كان نائما يبدو أنه يحلم بها... انها محظوظة به ألقاه القدر بطريقها لينتشلها من عناء الحياة، لتعرف معه مذاق الحرية والحب.

***

في صباح اليوم التالي وعند خروجهما من الفندق اصطدما بغارسيا، كان يقف مستندا إلى عربة خشبية ممتلئة ببراميل

من خشب البلوط، بينما كان صاحب العربة يتفحص ساق أحد حصانيه، ما إن رأته ريتا توجهت إليه غاضبة، دار بينهما حديث عنفته فيه وحذرته من فعل أي شيء أحمق أو ملاحقتهما، عادت إلى حيث يقف سانشو الذي لم ترق له نظرات غارسيا، رحلا عن المكان إلى مركز السوق، وبالقرب من قيصرية الحرير ظن أنه رأى دييجو، ربما أحد يشبهه أو أن هواجسه تجاه الرجلين هي من شبهت له الأمر، شيء ما بداخله حدثه بأن هناك أمر يحاك لهما ولكن روح ريتا كانت طاغية على الزحام وتلك الأفكار الغريبة، قبيل الظهيرة تناولا البايلا في أحد المطاعم القريبة من الساحة الكبرى، أحد العازفين الجوالين توقف بالقرب منهما وراح يعزف لحن بهيج على أوتار قيثارته، وفي النهاية مد قبعته لهما متمنيا لهما يوما سعيدا وحياة رغدة... منحه سانشو قطعة نحاسية وودعهما بإبتسامة هادئة.

جلسا بزاوية ظليلة قرب الكاتدرائية يتذكران ذلك اليوم الذي صعدا فيه الخيرالدة، وضعت رأسها على كتفه ودام صمتهما طويلا، يتابعان حركة المارة وذلك النسر المحلق في سماء المدينة، ليتهما يستطيعان التحليق بعيدا عن الصخب ورؤية العالم من الأعلى، سيكون من الجيد الابتعاد عن الناس والضوضاء، تثائبت فسألها:

- يبدو أن النعاس يراودك الآن.

- فقط أشعر بالخمول، لم اعتد هذه الحياة، كنت كثيرة الحركة والتجوال.

- أنا أيضا مثلك، كنت كثير ا لترحال بين مدن الغرب الأندلسي والإبحار في المحيط الشاسع وسواحل العالم الجديد، والان صرت أحب الخمول إلي جوارك.

- ماذا سنفعل في الأيام القادمة.

- يوم الأحد سنذهب للغداء في بيت القس كوزمو وأوفيليا... سأسلمها صك منزل جدتها والنقود والمفتاح وسنرحل.

- والكتاب؟

- إنه لي ورثته عن سعد القرطبي.

- أهو كتاب مقدس أليس كذلك؟

- نعم هو كذلك.. القرآن كتاب أجدادي ومن أجله مات الكثيرون على دينهم.

- لم أؤمن يوما بشيء، كنت اظن أننا نصنع قدرنا بانفسنا.

- ما أؤمن به أن هناك إله يدبر الكون ويدير شؤونه.

- لماذا يترك من يعبدونه في تلك المعاناة، ولماذا لا يدافع عنهم.

- قال لي سعد ذات يوم أننا في اختبار قد يدوم طويلا، يتم تمحيص المؤمنين، من يصبر ينال حظا وافرا بالآخرة في حياة أخرى بعالم غير ذلك العالم الذي نعيش فيه.

- هل أنت مؤمن بذلك.

- نعم. على أمل اللقاء بمن أحببت ومن فقدت من أهلي، من صبروا حتى ارتقت أرواحهم إلي السماء.

- سأكون معك هناك أيضا أليس كذلك؟؟

- بالطبع.

- أتعرف علي الذهاب واخبار خالتي بأمرك وأظن أن غارسيا قد فعل، ولكن ما سأقوله أنا يجعله ذلك الغبي.

- متى سنذهب.

- من الأفضل أن أذهب وحدي إلي ذلك الحي وبعدها نلتقي في النُزل، ربما بعد اقناعها بأمرك سيكون عليك مقابلتها.. لا تخف ستتقبلك حالما تعرف أنني مغرمة بك.

افترقا، اتخذت سبيلها إلي منزل خالتها، تابعها حتى اختفت بين المارة واستدار متخذا درب العودة إلي النُزل... استقبلتها

الخالة سيلفانا بترحاب حار، ضمتها إلى صدرها الضخم المرن، غاصت بين ذراعيها كما كانت تفعل دوما، تهرب من الهموم والإزعاج إلى حضن السيدة التي اتمت رضاعتها، اعتنت بها لسنوات كانت ابنة لها وهي التي لم ترزق بالبنات، مات لها من الصبيان اثنان قبل أن يهبها الرب غارسيا، والذي تمتع بقوة هائلة دون عقل يوجهه، عصرتها بين ذراعيها الممتلئين واغدقت على وجنتها الرقيقة بالقبلات:

- أخيرا أتيت لزيارة أمك؟ لم اعتد على ابتعادك كل هذه الأيام عني.

انسلت ريتا منها وطبعت قبلة على رأسها:

- كنت هنا أول أمس ولم أجدك.

- اخبرتني تلك الحسودة ماريانا، قالت أنك اصبت كنزا وكنت ترتدين أفخم الثياب والحلي.

- وما رأيك أنتِ؟

اقتربت سيلفانا من وجه ريتا:

- عطر ياسمين وخشب صندل.. يبدو أن ذلك الموريسكي يغدق عليكِ، اخشى أن يكون محتالا كما اخبرني غارسيا ودييجو.

- لا تصدقيهما.

- لا أفعل، ولكنهما صدقا بشأن تواجدك الدائم معه.

- الأمر ليس كما قالوا لك.

- اخبريني إذن ما الأمر.

- احببته.

ضحكت سيلفانا بصوت مرتفع، الأمر الذي أثار غضب ريتا فنهضت قائلة بعصبية:

- لا أجد الأمر مضحكا.. سأذهب الآن.

- يبدو أن ما قالوه صحيحا.. أنتِ مغرمة به ولا تفارقيه حتى بمكان نومه بالنُزل، هل هذا صحيح أيضا.

- أمي يكفي هذا.. أنا لست عاهرة.

- لم أقل ذلك ولا أستطيع أن اتخيل هذا ولكن لماذا ترافقيه.

- أحبه وسنتزوج.

- ليست الأمور بتلك السهولة، من ذا الذي يتزوج غجرية؟ أم انك نسيتِ عاداتنا في الزواج نحن لا نهب بناتنا للغرباء.

- سانشو ليس غريبا يا خالتي.

- إنه موريسكي بائس.

- كلنا كذلك.. كلنا موريسكيون بشكل ما، انسيتِ أن أبي من يهود السفارديم؟؟ أم تظني أن القشتاليين ينظرون إلينا من منظور مختلف!! كلنا سواء في هذا الجحيم وسانشو يخاف علي ويحتويني إنه يفهم نظراتي ومكنون صدري دون أن اتحدث، يغار علي من نظرات الناس التي لطالما نهشت جسدي أمام مرأى ومسمع من دييجو وغارسيا... انه رجل يستطيع حمايتي من أي خطر.

غمغمت سيلفانا بسخرية:

- أي مخاطر التي يحميك منها... شاهدتك كل عيون الغجر وغيرهم وأنتي تقتحمين حلبة الثيران لإنقاذه.

- أليس الحب تضحية.. ألم تخبريني هذا كلما ذكرتِ قصة أبي وأمي وزواجهما.

- الأمر مختلف يا ريتا.. انه غريب عن هذه الأرض.

- بل نحن أصحاب تلك الأرض.

- يبدو أنه سكب بعقلك هرطقات الموريسكيين لا تنطقي بهذا مجددا وإلا سمعك رجال الديوان.

- ليست هرطقات إنها الحقيقة.

- ريتا الحقيقة الوحيدة اننا غجر خلقنا من غبار حمله الريح من ربوع المعمورة.

- سيلفانا، ليس لدينا سوى حياة واحدة.. سأفعل ما أريد ولن يثنيني أحد عن اعتناق حب سانشو.

احتواهما الصمت لبرهة، اشاحت ريتا بوجهها حين التقت عيناها بعين خالتها التي نهضت وتوجهت إليها وقالت بنبرة تفيض بالحنان:

- أنت ابنتي الوحيدة... وأخشى عليك من الرجال.

- لهذا وافقتِ على زواجي من دييجو وأجبرتني على ذلك؟

- كنت أحسبه الأنسب ولكن يبدو أن ذلك البرتغالي لا بأس به.

استدارت لها ريتا بوجه ضاحك ودموع تتلألأ بالدمع:

- اسمه سانشو.. سانشو الأشبوني.

- هل هو وسيم؟

- أجمل ما رأيت من بين أبناء آدم، بشرته لفحها المحيط لسنوات وشعره الأسود يكون رائعا حين يجمعه كذيل حصان معقوص خلف رأسه، وله جسد مفتول يليق بقامته

المشدودة، بحار جاب محيطات وسواحل العالم الجديد، في كنفه أجد طمأنينة لم أعرفها بحياتي، دخلنا سويا قصر المورق.

اتسعت عينا سيلفانا وفغرت فمها وريتا تستطرد:

- رأيت حياة أخرى معه واصبح لكل شيء معنى ولون ورائحة... ولا أريد سوى أن أكون معه للأبد.

***

ابتسمت الحياة له ووهبته ريتا، سينجب منها ثلاثة ولدين وبنت سيشبهونها بالتأكيد، سيزهر ربيع عمره وينسى ما حاق به من آلام، سنوات الوحدة انتهت بحضورها وشذى عطرها هو أكسير الحياة، جالت بخلده تلك القصص عن عالم الإنكا والأزتك المسحور، كنوز مدفونة بداخل أهرامات مدرجة وعلى قمم جبال تكسوها الثلوج، هناك في هذه الأراض البعيدة تمنى أن يعيش، ولكن ريتا تحب تلك الأرض الذي ينتمي إليها هو الآخر، كل شيء في إشبيلية صار جميلا حتى الزحام، العربات والبائعات والشحاذين أناس ولدت وستموت هنا وربما جاء أحد منهم ذات يوم للمدينة وفقد طريق الخروج مثله، كل زقاق ودرب يحفظ ذكرى حديثة لهما، حبيبين لن يفرقهما سوى الموت... برز غارسيا في نهاية الدرب الخاوي إلا منهما، لم يتوقف سانشو عن السير وانما

تباطأت خطواته ومن خلفه جاء صوت دييجو:

- أنت أيها الموريسكي..

ثبت سانشو لبرهة ثم استدار ليواجه محدثه الذي كان يقف ممسكا بيده اليمنى هراوة يربت بها على راحة يده اليسرى، تبددت ابتسامته الخبيثة حين استطرد:

- حالفك الحظ مرة بحلبة الثيران ولكن هذه المرة لا مفر، ما فشل به الثور سننجزه نحن.

- لا أفهم ما خطبكما يا رفاق.

- لسنا رفاقك يا هذا.. أنت مجرد سارق زير نساء تغوي الفتيات وتسلبهن من أحضان أحبابهن.

- ليس هناك داع لكل هذا يا دييجو.

- لا تنطق اسمي أيها الحقير.

اختتم كلماته وهو يتقدم بحذر نحوه مأرجحا الهراوة في الهواء، الزقاق ضيق وصوت خطوات غارسيا الثقيلة تدب الأرض من خلفه، كان محاصر بينهما رفع يداه محاولا تهدئة دييجو قائلا:

- اسمع يا رجل لا أريد أن انشاجر معكما لقد سامحتكما على ما فعلتماه بي..

لم يكد يكمل جملته حتى أحاطت به ذراعي غارسيا، احتضنه من الخلف وراح يهز جسده بعنف بينما ركض دييجو مسرعا نحوهما، حاول سانشو التملص دون جدوى كان يطبق عليه، أرجح ساقيه في الهواء محاولا ابعاد دييجو الذي كاد أن يهشم عظامه بضربة لم تصبه، غارسيا يعتصره أكثر والهواء يتضائل داخل صدره، حاول دييجو أن يضربه بالهراوة ولكنه فشل مع كثرة حركتهما، دفع سانشو الجدار بقدمه ليندفع بجسد غارسيا للخلف مرتطما بباب خشبي عتيق وبكل ما تبقى فيه من قوة ضرب بمؤخرة رأسه أنف الغجري الضخم... مرة... اثنان... ثلاث وفي الرابعة أفلته ممسكا بانفه المكسور في اللحظة التي كادت الهراوة تصيب صدر سانشو الذي سقط أرضا، وتلقى غارسيا المسكين الضربة عنه، خر صارخا باكيا من شدة الألم، الأمر الذي جعل عينا دييجو تجحظان وهو ينظر لما فعله بصاحبه المكتور على نفسه أرضا ينتحب، تملك منه الغضب وحين رفع عيناه بإتجاه سانشو كان ذلك الأخير أقرب إليه مما تخيل، لكمات متتالية حظى بها الرجل، سقطت الهراوة بعد ركلة قوية اصابت فخذه، سقط على ركبتيه وقبضة سانشو تعانق فكه، سن فارق فمه وطار بالهواء وسقط مع جسد صاحبه المدمى، واقف سانشو معتصرا قبضته الملوثة بالدماء ورماهما بنظرة حملت قبس من شفقة وانحنى ممسكا بتلابيب دييجو قائلا:

- لم أرد هذا.. لا أريد رؤيتكما في نطاق تواجدي مرة أخرى، وإن اقترب أحد منكما من ريتا سيكون عقابه الموت.

***

ما أجمل أن تفتح عيناك كل صباح لتجد من تحب بجوارك، تسطع بسماء حياتك كألف شمس تدفئ القلب في أيام الشتاء الباردة، وتمسي وقد اقتبست النجوم ضيائها من روحها النقية، أيام قضاها برفقة ريتا نعما فيها بالراحة والبهجة، لم يخبرها بما حدث مع قريبيها بينما اخابرته أن خالتها تتمنى رؤيته والحديث معه، كان عليهما الترتيب للعرس وكل تلك الأمور المتعلقة بزواجهما، حاولا مقابلة دي لافيجا ولكن الرجل استدعي إلى مدريد دون أن يودعاه، مرت الأيام كلحظات ناعمة بجوارها وقرعت أجراس الأحد لتذكره بموعده مع أوفيليا وزوجها المحقق كوزمو، أراد أن تذهب معه ولكنها تعللت بتوعكها، كانت خاملة في ذلك اليوم كل ما تمنته هو النوم فقط حتى يعود من لقاءه، حدثته كثيرا عن تفاصيل أفراح الغجر وهو يرتدي ثيابه، تأنق وبدى وسيما فوق العادة، ولكنها لم تقوى على الحراك لتحتضنه، اقترب منها وطبع قبلة على جبينها ومضى إلى موعده مع حفيدة شُمية.

ترجل عن حصانه المختال أمام منزل أوفيليا، كان بهي

الطلة له حديقة غناء فريدة بنخيلها المتناثر في الجنبات، سار بخطى واثقة فوق الممشى الحجري المؤدي لباب البيت الأندلسي المنيف ورائحة الريحان تعطر الأرجاء، استقبله أحد الخدم بإبتسامة وانحنائه:

- السيدة أوفيليا تنتظرك بالداخل.

قاده عبر ممر طويل ذو جدران نصفها السفلي من الزليج الأخضر والأبيض وزينت حوافها بنقوش عربية متواصلة حتى نهاية الممر، وفي الفناء الداخلي كانت أوفيليا تقف توليه ظهرها وخرير ماء فسقية صغيرة هو فقط ما يُعمر المكان، ما إن سمعت وقع خطواتهما التفتت ومالت برأسها قليلاً إلي اليسار وعلى وجهها ابتسامة عريضة زادتها فتنة:

- ها أنت هنا سيد سانشو... سعيدة بتلبيتك لدعوتي.

ختمت كلماتها بإشارة للخادم فرحل عن المكان وتركهما، وتقدم سانشو نحوها بخطوات واسعة بعض الشيء:

- كيف أرفض طلب قريبتي الجميلة سيدة إشبيلية.

ضحكت وهي تتطلع بوجهه ثم حدثته وبدى صوتها أكثر هدوء وجدية:

- أتعرف لكنتك البرتغالية تذكرني بجدتي استيرا... فأهل

بطليوس أكثر قربا للبرتغال وأظن هذا هو سبب تلك اللكنة.. منذ فترة وأنا ألح على زوجي بالذهاب لزيارتها وحزنت كثيرا حين اخبرتني بأمر وفاتها.

- كانت تكن لكم الكثير من الحب، وفي أيامها الأخيرة لم يتوقف لسانها عن ذكر والدتك سارة وأختك آنا وأنتِ.

- ماذا قالت لك؟

- كل شيء ولكنها لم تذكر أنك جميلة بهذا القدر.

رددت الجدران ضحكاتها وما لبثت أن وضعت يدها برقة على ثغرها وحين هدأت عاصفة ضحكها قالت بدلال:

- علي أن أعلمك بأن زوجي كوزمو غيور لدرجة لا تتخيلها.. هل نسير إلي بهو الضيافة ونكمل حديثنا ريثما يأتي العزيز كوزمو.

استقر بهما الحال في البهو الرائق فخم الأثاث تعج جنباته بالقناديل النحاسية اللامعة وتتدلى ثريا بديعة من سقفه الخشبي المعشق والمضفر بالألوان، وعلى الحائط ثبت صليب كبير حمل جسد المسيح المدمى، كان نحتا دقيقا بدى لوهلة أنه حقيقي، ظل يتطلع إليه والخادم يصب له كأس نبيذ، ارتشفت أوفيليا القليل من كأسها وحدثته قاطعة لحظات تأمله:

- حمل أخطائنا جميعا، ووهبنا مغفرة لا حدود لها.. صليت كثيرا حتى يتقبل أمي في ملكوته رغم هرطقاتها التي لم تتوقف حتى لحظاتها الأخيرة، اخفيت على زوجي ما قالته وجعلته يقيم لها تأبينا يليق بمسيحية حقيقية.. أختي آنا رفضت ذلك وحتى زوجها الغرناطي بكى حين أحرقت الكتب البالية أمام عينيه، كان علي فعل ذلك ماذا ستفيده الكتب المخبأة إن عذب ومات ونسيه الناس، صنعت المستحيل حتى يرحلا دون أن يلاحقهما كوزمو ورجال الديوان، واستجاب الرب لدعواتي ولعله يهديهم إلى طريق محبته.. اعتذر عن كثرة الحديث ولكني بحاجه لهذا، بين الحين والآخر يراودني شعور بالحكي عما ألم بي وبأسرتي.. نعم أعيش حياة رغدة كما ترى ولكن هذا لا يمنع من وضعي داخل دائرة الشك حتى وإن كان زوجي يعمل كمحقق بديوان التفتيش، البقاء إلى جوار كوزمو جعلني أشعر بالأمان واطمئن بأن نهايتي لن تكون المحرقة أو التعذيب... اعتذر مرة أخرى ولكن بما إنك قريبي بشكل ما جعلني افصح لك بكل تلك الأمور.

- لا عليك أوفيليا... أعلم ما تمرين به لقد عشت فترة من الزمن داخل مقر الإرسالية وديوان التفتيش بلشبونة.. نحن بحاجة دوما للبوح بشكل أو آخر.

- اخبرني عن جدتي.

- انها ملاك الرب تجسد في هيئة بشرية، كانت مؤمنة بهويتها وأصلها وبك أنت وأختك آنا، تمنت رؤيتكن قبل أن توافيها المنية، ويشاء القدر أن تموت بعد انقاذها لرضيع تركته أمه في العراء. كانت ليلة عاصفة اشتد فيها المطر وكان للبرق الكلمة العليا في المكان، جئت لزيارتها من لشبونة وبقيت معها حتى أخر أيامها كانت تحبكن وأوصتني أن...

قطع حديثه حين دلف زوجها للبهو، المبجل كوزمو ذلك الصارم ذو النظرات المرتابة، رغم ابتسامته الباهتة رحب بسانشو بحفاوة، وبعد عدة عبارات مجاملة متبادلة سأله:

- كيف وجدت إشبيلية سيد سانشو؟

- فاتنة ملكية تسري بعروقها دماء نقية عريقة، تستحق ان تكون جوهرة بتاج الإمبراطورية.

- وصف رائع يليق بمغامر جال بأطراف العالم.

احس سانشو بشيء ما في كلماته والرجل يستطرد:

- أتعرف يا سيد سانشو.. ودت السفر أنا وزوجتي العزيزة إلي تلك البلاد البعيدة، ولكن كما تعلم هناك الكثير من المرتدين علينا مجابتهم هنا، أتعجب كيف نريد لهؤلاء الناس

الخلاص وهم يصرون على البقاء على دينهم وهرطقاتهم القديمة.. يظنون أننا لا نعرف بما يفعلونه ولكنهم أغبياء، اليوم على سبيل المثال قبضنا على طباخ يرفض الطبخ بدهن الخنزير، وبعد الكثير من التحقيق وجدنا أنه مازال على دينه حكم عليه بالموت حرقا هو وكتبه التي وجدناها مخفية بجدران منزله... انهم يحافظون على دينهم ويمارسون التقية لإخفاء ما يعتقدون كتلك المرأة التي ولدت في فحص البلوط بمنطقة جبال البشرات بغرناطة.. تدعى ماريا الغرناطية نشأت على ممارسة التقية وإخفاء انتمائها خوفا من العقاب ويبدو أنها تلقت تربية إسلامية حيث علمها أهلها ترتيل القرآن ومختلف الشعائر الإسلامية باطمئنان باستثناء يوم قدوم الراهب ممثل محكمة التفتيش في مهمة تعليمية وتفتيشية للتحقق من أنهم صاروا مسيحيين مخلصين ونجحت هي وأسرتها في إخفاء ما يعتقدون ولكن حياة الأسرة لم تدم على هذا المنوال كثيراً فقد قام أحد بالوشاية بهم.. وليثبتوا لمحكمة التفتيش أنهم مسيحيون مخلصون أجبرت على الزواج في الرابعة عشرة من العمر بمسيحي من كاستيا دي مانشا كان يحلم بالثراء وجائت معه إلي إشبيلية.. حيث عاشت حياة صعبة وقاسية بين عالمين أحدهما سري والآخر لا تستطيع تقبله. كانت في السابعة والعشرين من عمرها عندما قررت البوحَ به لراهب

بكنيسة القديس سيلفا وطلبَ العفو وأذن. لكن الراهب أبى إلا أن يُبلِّغ عنها محكمة التفتيش، كانت تريد التوبة. واضطُرَّتْ ماريا الموريسكية إلى الذهاب بنفسها إلى الديوان لتبوح رسميا بذنبها وهي غارقة في البكاء.

كان من حسن حظها أنني هناك واقتنعت بصدقها فسلطت عليها عقوبة مالية بدلا من القتل حرقا، وتم ذلك في سرية تامة حتى لا يعرف زوجها وغيره من الناس بهذه القضية، التي كانت من أخطر القضايا، حفاظا على سمعتها وأسرتها ومستقبلها في بيتها وخارج بيتها... ولكن يبدو أن ماريا سئمت الحياة المزدوجة حتى بعد العفو عنها... ففي أحد الأيام عاد الزوج ولم يجدها بالمنزل واختفت منذ ذلك الحين. إن الموريسكيون كاذبون أنذال كذلك الشخص الذي قبض عليه وهو يَقوم بختن الصغار، أتعرف ما وجب علي فعله حيال هذا الأخير؟ أمرت رجالي بقطع عضوه ليكون عبرة لمن يعبث بإرادة وخلق الرب... وما خُلقنا إلا لنقدس ونخدم ثلاث الرب والملك وإسبانيا.

دام الصمت لبرهة قبل أن ينقل كوزمو بصره إلى زوجته قائلاً:

- عزيزتي.. هل تعطين أوامرك للخدم بتجهيز الغداء، سيكون على الرحيل مبكرا مازال أمامي الكثير من القضايا

العالقة.

رحلت أوفيليا عن البهو وتركتهما داخل بركة صمت عكر كوزمو ركودها بصوته الهادىء:

- سيد سانشو لم تخبرني عن صلة قرابتك لزوجتي.. وهل تنوي البقاء هنا؟

تحسس سانشو مفتاح بيت سُمية الذي بجيبه:

- جدتها استيرا هي خالة أمي، وفي الحقيقة لا أنوي البقاء هنا كثيرا ربما أعود إلى لشبونة مرة أخرى.

- هل ستذهب معك تلك الغجرية؟؟

هوى السؤال بقلب سانشو ارضا، ظل يحدق بوجه الرجل لبرهة قبل أن يقول:

- نعم سنتزوج قريبا وسترحل معي.

- علي أن أحذرك إذن فالغجر لا أمان لهم كما الموريسكيين.. اعذرني على تلك الكلمة الأخيرة إن كانت أزعجتك ولكن إنها الحقيقة، ودوما ما تكون الحقائق موجعة.

- الحقيقة الوحيدة هي أنني أغرمت بها، أي كان ما تعتقده هي أو أنا فهذا لا يهم أمام إيماني بحبها لي.

- هو الحب إذن.. يصنع المعجزات وها هنا دليل قوي على ذلك، نبيل برتغالي ذو أصول موريسكية يعشق غجرية، زوجان رائعين بالتأكيد، ولكن وجب علي تحذيرك فأنت قريب أوفيليا العزيزة.. لماذا لا تنتقل للعيش هنا بدلا عن ذلك الفندق المتواضع؟

- لم يتبق لي سوى أيام قليلة وأرحل عن إشبيلية.. ربما في المرة القادمة.

حديث استمر خلال تناولهم الغداء، بدى جليا أن كوزمو يبغض الموريسكيون ويشك في جميع من حوله حتى زوجته أوفيليا لم تسلم من نظراته الشائكة، ليس بالشخص السهل كلماته توحي أنه يعرف الكثير من التفاصيل عنه وربما هناك من يراقبه خلسة، ويعرف كيف ينتقي كلمات سامة بين الحين والآخر، وأكثر ما أرق سانشو أن يعرف ذلك الرجل حقيقته، إنه ليس بربان سفينة ولا نبيل برتغالي ولا حتى قريب لزوجة المبجل، اصبح كمن ألقى بجسده في جحر مكتظ بالثعابين، لن يمنح أوفيليا مفتاح منزل جدتها ببطليوس ولن يخبرها عن كتب أجدادها المخزنة بالقبو هكذا قرر، انها زوجة لا حول لها إلا طاعة ذلك المتغطرس تريد الحفاظ على حياتها ومنزلها وطفلها، وقد تفعل أي شيء مقابل أمانها وبقائها لجوار هذا اللعين – كوزمو -، وإن كان

هناك من يجب أن يحظى بذلك الإرث فحتما سيكون « آنا » ولكنها بغرناطة والطريق إلي هناك يحتاج الكثير من التدابير اللازمة، قضم قطعة اللحم رويدا وراح يمضغها وعقله هائم بغابات من خوف نبتت بأعماقه، ماذا لو تواصل الديوان ببطليوس مع كوزمو؟ ذلك الرجل الذي دعاه لحضور قداس وإحتفالية عيد الميلاد المجيد بالكنيسة.

***

آخر ليلة بالعام.. أجواء صاخبة وريح باردة، احتفال يليق بعام مضى من حياتنا، وإشبيلية تتجمل بالورود والأزاهيج ومواكب الرهبان، الشوارع اكتظت بالكثير من سكان القرى جاؤوا لبيع بضاعتهم وشراء ما يلزمهم للتصدي لبرد شتاء قارس، الشوارع مبللة رغم توقف المطر منذ ساعات، والغيوم الرمادية الكئيبة حجبت شمس المغيب والخيرالدة تقف وحيدة وسط زحام بدء يخفت رويدا، احتضنته ريتا بينما قاد جواده النبيل عبر الطرقات، ساقاه ملوثتان بالطمي ووقع خطواته على الأرض الممهدة بالحجر كانت بطيئة رتيبة، عائدين على صهوة حصانهما إلى النُزل بعد يوم طويل قضوه في البحث عن منزل خارج المدينة يصلح لاحتضانهما، أعياهما البحث ولكن هذا لم يكن سبب تجهم سانشو منذ ولج بوابة المدينة، كان السبب هي تلك الطقوس

التي أداها رجال ديوان التحقيق، الموريسكيون المكبلون بالحديد في موكب استعرض خطاياهم، العامة يبصقون عليهم ويرمونهم بالقاذورات والحجارة، ذكريات قديمة احياها ذلك المشهد، حثته ريتا على التقدم واعتصرته بذراعيها مسندة رأسها على ظهره هامسة:

- سانشو.. لنعد لغرفتنا بالنزل كان يومنا مرهق للغاية.

- ماذا فعلوا لتكون هذه نهايتهم! هل كتب على قومي أن يعيشوا في هذا الهوان كثيرا؟ هل علي أن اصمت وامضي في حال سبيلي حتى يأتي اليوم الذي أجد فيه نفسي فوق المقصلة أو مربوطا على صاري خشبي يشتعل بينما يهلل الناس فرحا كما كانوا يفعلون في حلبة الثيران.

- حبيبي لا عليك أنا معك وكل شيء سيكون بخير.

- كنت أحسب أن مشاعري تبلدت، وقد رأيت أكثر من هذا في صغري بلشبونة وفي هافنا والبيرو، كنت أحاول نسيان من أنا، وهنا في اشبيلية استقر بداخلي شيء من الحنق والغضب كلما نعتني أحد بالموريسكي وكذلك يفعلون مع الجميع من بني قومي، الغريب أننا كُثر ولا نقوى على فعل شيء.. نمتثل لإهاناتهم وعقوباتهم وندعي أننا مؤمنون بعقيدة أخرى غير التي نبطن، لماذا يحاق بنا العذاب؟؟ سؤال لطالما سألته لسعد القرطبي وكانت اجابته دوما أننا عائدون

لمجدنا، إن قشتالة وأعوانها يخشوننا ويخافون أن تنقلب الأمور مرة أخرى ونصبح نحن أهل السلطان والحكم في الجزيرة.

- أنت قلتها، انهم يخشون وجودنا جميعا.

- منذ خرجت من منزل أوفيليا وكوزمو وأنا أفكر ماذا علي فعله الآن؟ وقد اوصتني سُمية بألا أخذلها واحافظ على كنزها وكتبها التي هي إرث لقومي جميعا، أوفيليا ستكون ممتنة بينما تمنح زوجها مئات الكتب ليحرقها أمام ناظريها، ومنزل العجوز الفقيدة سيصبح مقرا للراهبات إن كان حظه سيئا ولم يصبح حانة أو فندقا يعج بالمومسات.

صمت لا يقطعه سوى وقع أقدام الجواد حتى توقف أمام الفندق فسألها:

- ريتا هل تذهبين معي إلى غرناطة؟

لثمت قبلة رقيقة وقالت:

- أنا معك فلا تبتأس، كما أن الليلة هي ليلة العيد علينا تبديل ملابسنا بعد هذا اليوم المرهق وسآخذك إلى مكان رائع، سنبتعد عن صخب المدينة إلى رحاب اللقاء الأول بيننا.

قضوا ليلتهم معا على شاطئ النهر رغم الثلوج الرقيقة

المتساقطة، كان يكفيهما بعض الأخشاب المشتعلة وقطع من لحم متبل تقطر دهنا فتطقطق النيران وتسفعه، لم يمض الكثير حتى جاء آخرون إلى المكان، عازف قيثارة وحيد ورجل مشرد مع كلبه، وسيدة ظلت تقف على حافة الشاطئ هائمة، الألحان أسرة حزينة أحاطت قلوبهم بدفء، امتزجت رائحة الشواء بعبير أزهار الخزامي الشتوية، وسانشو يقلب قطع اللحم على النيران بينما ريتا تجلس في كنفه وديعة تنعم بالدفء وألحان العازف البائس، كانت ليلة رائعة ككل الليالي بجوارها، تسامرا حول ترتيبات الزواج وكم يريد من الأبناء والبنات، كان يشعر أنه ملك العالم فقط لأنها بجواره، ظل يحكي ويقص على مسامعها حكايات عن رحلاته وأمنياته وعنها... حتى غفت.

استيقظت في الصباح على قرع الأجراس، تعجبت حين وجدت أنها بالفراش وآخر ما تذكره أنها كانت على شاطئ النهر معه، كان يقف قبالة الشرفة محدقا في أسراب طير تحلق والسماء تضج برنين أجراس الكاتدرائية، الشوارع بدأت بالإكتظاظ مجددا وكأنهم لم يسهروا صخبا طوال الليل، تقلبت متثائبة فأفضح صرير الفراش أمر استيقاظها، التفت إليها مبتسما والتقت عيناه بوجهها الصابح وشفاهها الوردية ككرز رطب يناديه لإلتهامه، كان يشعره بأن عقله فارغ من كل شيء إلا هي، شغوف بكل جزء فيها وينسى

العالم وكل ما يؤرقه حين يحتويها بين يديه، يهمس باسمها فتزداد تشبثا به... صباح هانئ بصحبتها وعصفور على حافة النافذة يغرد ويتنقل بسرعة في جنباتها، وضياء انسل من بين السحب ليغمر الغرفة بوهج شمس انساب على مسامهما... سكون دام طويلا وهيمن الغيم الأسود ماطراً، جذبه صوت المطر والقطرات المنزلقة على زجاج نافذته، نهض بعد أن لثم يداها اللتان كانتا تحيطانه طوال الوقت، لم ير ذلك النوع من الغيوم في تلك الأنحاء من قبل... يذكر كيف كانت السفينة تتأرجح بعنف والبرق يخطف الأنظار، يكسر الظلام الدامس لبرهة خاطفة، والموج يسحب البحارة من فوق السطح الزلق، ريح عاصف راح يقتلع الحبال ويهشم الصواري، وهو كان خائفا ربط نفسه إلى أحد الصواري وذلك المجدف الهندي بركة بن يونس يحاول الهرب من السفينة والنجاة بالسباحة مبتعداً، ربما كانت فرصة غير مثالية للهرب ولكن الموج أقسى من البشر وعذاب الأسر والوحدة، كان يأمل بالنجاة في مشهد مهيب حيث الموت يحوم فوق محيط هادر، تذكر كيف وجدوه في الصباح متعلقا بحطام سفن لم تصادف النجاة، لا يدري لم جاءت تلك الذكرى لعقله ربما تلك الغيوم السوداء هي السبب، أفاق على صوت ريتا الدافيء:

- كل شيء يمضي.. كتلك السحب العابرة.

التفت ليجدها تقف خلفه تماما، ابتسم وأزاح خصلات شعرها جانبا:

- تعبر السحب وتبقى الذكرى، كلحظاتنا هذه.

احتضنته بقوة:

- لن تنسى وأريدها أن تدوم حتى ينال الكِبر منا.

- سيليق بك الشعر الأبيض الفضي، ستكونين فاتنة.

- وأنت شيخ هَرم لا تقوى على السير.

- سأتكأ عليك.

- سانشو.. أنا جائعة.

رمقها باستغراب، أفسدت لحظة عشقهما ببرائتها التي اعتداها، ربت على رأسها بلطف قائلا:

- وماذا تريد أن تأكل جميلتي.

- لا أدري دعنا نخرج تحت المطر ونبحث عن مكان نأكل فيه وجبة ساخنة، انه يوم العيد واشبيلية رغم المطر مزدحمة، سيكون من الرائع أن نتشارك تلك الأجواء المليئة بالبهجة.

ولكن السعادة والبهجة كان نهايتهما بهو الفندق، الوجوه

ممتقعة بائسة وسكون كمم الأفواه، لاحظ سانشو التجهم والأسى الذي أصاب كل شيء، المطر توقف والطرقات مبللة بدمع عين عجوز موريسكية استندت على جدار قديم مائل، وشيخ كان يجر قدماه جرا هائم النظر بالخواء، أي حزن هذا الذي تجرأ على مداهمة النفوس في مطلع عام جديد، قبضت ريتا على يديه بقوة بينما تتبادل معه النظرات المتوجسة، كان هناك شيء غريب يهيمن على الأجواء.. كآبة تسري مجرى الهواء بالأنفاس، وأجراس الخيرالدة تقرع من جديد لتطير العصافير، توقفا عند ساحة الكاتدرائية حيث الزحام وعربات النبلاء وخيلهم المسوم النبيل، حالة من الهرج والاحاديث المتواصلة بين الناس، حلقات نقاش حادة وجند ينتشر في الأرجاء، سألت ريتا إحداهن كانت على وشك الرحيل عن المكان: هل هناك خطب ما؟

لم تجبهم السيدة المرتاعة فقط جذبت طفليها وراحت تحث الخطى مبتعدة، صخب وأحاديث متداخله انسلت لسمعهما حتى صاح رجل مُسن بصوت جهوري:

- الموت لفيليب المعتوه.

ساد الصمت طويلا، جحظت العيون وتعرقت الوجوه رغم برودة الأجواء، وما لبث أن انقض الجند وبعض القشتالين على الرجل، حالة من الهرج عمت الساحة والرجل يطحن

بالركلات واللكمات، تدخل بعض الشباب للدفاع عنه وأصبح الأمر اشتباك عنيف، تدافعت الجموع ونسوة يصرخن وسقط بعضهن تباعا، جذب سانشو يدها وحاول المرور دون أن يرتطم بأحد في خضم المعركة الشرسة، حاول أحد الجند دفعهما ولكن سانشو تجاوزه، كان يحاول فهم ما يحدث ولكن الناس والحراس مشغولون في العراك، تشبثت ريتا بيده بينما ينسلان من الزحام ولكن سانشو توقف فجأة، كان دييجو وغارسيا يقفان أمامه والأخير يصيح بغلظة:

- اقتلوا ذلك الموريسكي الحقير.

صار كل شيء من حولهما يتحرك ببطء شديد، الدماء تسيل من الأنوف والأفواه والهراوات وكعوب البنادق تهوي فوق الرؤوس والصدور، نساء يسقطن على وجوههن وشباب يقاوم بأياد عارية، وغارسيا يهجم بضراوة على سانشو بينما كان دييجو يحاول الإمساك بريتا، اللكمات والضربات بين الشابين كانت متكافئة حتى تدخل أحد القشتاليين وراح يلوح بسيف قصير بوجه سانشو الذي ركل صدر غارسيا ليبعده بضع خطوات للخلف، أما ريتا فهوت على وجه دييجو بصفعة دوت كصاعقة وسط العراك الأمر الذي زاد من غضبه، انقض عليها ليمسك بها.. أحاطها بذراعيه وبقوة راح يعتصرها حتى لا تفلت، وريتا تقاوم باستماتة لإفلات

منه حاولت أن تعضه أو تركله ولكن محاولتها باءت بالفشل، راح يتحرك ساحبا إياها وسط المعركة الهادرة وسانشو يبحث عنهما بعينيه بينما يهاجمه غارسيا والشخص الآخر، جنون وتفشى في الساحة والدروب أناس يركضون وسط صرخات هلع، حين تجد نفسك بوسط معركة لا دخل لك بها ولا تعرف سبب لها يتحتم عليك الإنسحاب، ولكن حين يَمس الخطر شخصا تحبه يجب أن تقاتل لتخرجا سويا من دائرة الجنون، وهذا ما فعله سانشو الذي قاتل بضراوة واستطاع أن يستخلص السيف من القشتالي الذي سقط على وجهه بعد ضربة رأس تلقاها في أنفه، أما غارسيا فكان كل ما يهمه الانتقام ضربة من هراوته اصابت ذراع سانشو فسقط السيف أرضا، آلمته الضربة وصراخ ريتا يرج كيانه... دييجو يجذبها مبتعدا، تشتت سانشو ودوي صوت الطلقات يصم الآذان، اندفع جند بالبنادق والحراب وفوق الرؤس سحابة من دخان البارود المنبعث من فوهات البنادق، حالة من الفزع اصابت الجموع فهرول الناس راكضين إلى خارج الساحة يلاحقهم الجند القشتالي، ووسط الدخان والأجساد المندفعة كان غارسيا قد حدد هدفه وضرب بهراوته رأس غريمه... الضربة كانت قوية صوت تهشم العظام بدى واضحا رغم وقع الأقدام والصياح والدخان، ضربة أخرى سحقت رأسه وتناثرت الدماء لتغرق صدر غارسيا الذي لم يبالي بما يحدث

حوله، أخيرا نال من الشخص الذي دمر عائلتهم وسلب منهم ريتا، أخذ يصيح ملوحا بهراوته والدخان ينقشع رويدا عن جسد الصريع الذي ما إن رآه حتى جحظت عيناه.. الفوضى والدماء وأجزاء من لُب الرأس متناثرة، وسقطت الهراوة أرضا بجوار الميت الذي لم يكن سانشو.

اللحاق بدييجو كان أولى من خوض عراك مع غارسيا، وهذا ما فعله سانشو في اللحظة التي دوى فيها صوت البارود، جرفه الناس بعيدا عن ساحة قتاله مع الغجري الضخم، ورآها بين الجموع تقاوم دييجو الذي يسحبها عنوة بين الزحام، كسمكة منهكة تسبح عكس اتجاه التيار في مخاضة نهر وعرة راح يشق دربه باتجاهها، البنادق تدوي بارودها مرة أخرى والناس تركض كقطيع أبقار يفر من الذبح، طفل يبكي ولا أحد يعبأ به فقد أمه في الزحام، وإن بقى على حاله ستدهسه الأقدام، حمله رغم الألم الذي حاق بذراعه وجعله يتشبث بإطار حديدي لإحدى النوافذ، ربت على كتف الصبي الخائف وصاح فيه: تشبث جيدا حتى تأتي أمك.

كان على عجلة من أمره واكتفى بنظرة اطمئنان على الفتى المعلق قبل أن يدلف هو إلى الدرب الجانبي، في نهاية الممر الضيق كان دييجو حاملا على كتفه ريتا، جسدها مرتخ

وذراعاها مرتخيان يتمايلان مع حركة الرجل المسرع، صاح سانشو بصوت هادر:

- دييجو توقف.

ثقلت خطوات الغجري رويدا حتى توقف ثم التفت ببطء، أرقد ريتا مسندا ظهرها إلى الجدار وهو يحدث سانشو متهكما:

- لا يكن قلبك ضعيف هكذا.. إنها فاقدة للوعي وهذا من حسن حظها أنها لن ترى ما سأفعله بك.

- سأجعلك تندم جراء فعلك هذا.

سحب دييجو سكينا من غمد معلق بحذائه، لعق نصله بطرف لسانه وراح يخطو باتجاه سانشو بثقة:

- سأتلذذ بسخلك كالشاة أيها الموريسكي.. لست سوى وغد ضعيف محتال لا تقوى على الاحتفاظ بها، أو الذود عنها.. انظر لحالها إنها ضعيفة واهنة بسبب غرامها لك، ليست هذه ريتا القطة الشرسة التي لا تلين ولا تستسلم.. ولكني هنا لحمايتها من أمثالك فلا أحد يأخذ ما هو مِلك لدييجو دي ريو.

كانت آخر كلمات دييجو قبل أن يتلقى تلك الضربة على

مؤخرة عنقه، جحظت عيناه وسقط خنجره ثم هوى على وجهه، خلفه كانت ريتا تقف ممسكة بعصا غليظة متمتمة:

- لست ملكا لأحد أيها الحقير.

كانت ترتجف وهي تحدق برأسه المتفجرة بالدماء، القت العصا وتراجعت خطوتين للخلف، هرع سانشو نحوها فارتمت بين ذراعيه باكية، احتضنها لبرهة ليهدئ من روعها، وما لبث أن جذبها برفق ليرحلا عن المكان والمطر يهطل من جديد والطرقات خاوية إلا من ريتا الوجلة كسانشو، ما الذي أصاب الناس ليفقدوا عقولهم هكذا؟ اتخذا طريقهما إلى النزل وغيوم سوداء تتكدس بالسماء والثلوج تتساقط كزغب صقر جارح آن وقت تحليقه، كل شيء بدى لهما أنها نهاية الدنيا، لا شيء يعمر الدروب سوى الخوف والكآبة وهكذا باتت إشبيلية. مدينة احتلها السكون وفرض على أهلها الصمت والحزن.

بمدخل النُزل جلس أحد العاملين مطأطأ الرأس بعد أن فرغ من إشعال القناديل في الممرات، كان سمين تخطى عقده الخامس، ويدعونه أندرياس موريسكي من سلالة عربية نبيلة عاشت لقرون بإشبيلية، هكذا كان يقول دوما ويفتخر بذلك، واليوم شعر بالقهر كان ينتحب ويتصبب عرقا، من الصعب تقبله للأمر كان يظن أنه ستتبدل الأحوال

يوما ما، ويستطيع أن يُفصح بجدارة عن ما تبقى من دين أجداده الذي يحمله بجوفه، علم أطفاله العربية ولازالت عائلته ككل الموريسكيين يرتدون الملاحف والعمائم وينطقون فيما بينهم باللغة التي يحبونها رغم كونهم مسيحيين ولا تفوتهم عظة بالكنيسة، كان يرثي حاله حين وجده سانشو وريتا على تلك الحالة، سأله سانشو:

- هل أنت بخير؟

مسح وجهه بطرف رداءه وتطلع بوجهيهما:

- أما عرفتما بما حدث؟

أجاب سانشو مستغربا:

- هناك أمر جلل وفوضى بالساحة الكبرى وجل الدروب المحيطة.

انتحب الرجل وفاض الدمع من عيناه:

- سيرحلوننا عن إشبيلية، إن ازدات الأمور عن حدها.

اقتربت ريتا منه وربتت على كتفه وحاولت أن تبتسم:

- هل من الممكن أن تهدأ حتى تخبرنا بمن الذي سيرحلكم وما سبب كل ما يحدث؟؟

- أما سمعتم بقرار الملك الذي أذيع اليوم في الأسواق، إنهم يمحون هويتنا وإرثنا... لا يكفيهم أننا دخلنا لدينهم الأن فرضوا مراسم جديدة حظروا التحدُّث والقراءة والكتابة باللغة العربية وعلى هذا النحو يتم إلغاء كافّة العقود التي تحرَّر باللغة العربية.. وطلبوا أنْ تُسلم الكتب العربية لديوان التفتيش، على أنْ تُعاد الكتب إلى أصحابها بعد فحْصها للتأكد من أنها لا تحتوي هرطقات ولا تضر الشخص المؤمن بحيازته لها، كذلك منعونا من ارتداء ملابسنا نترك السراويل والملافح وتسير النسوة ووجوههن مكشوفة دون أي حشمة ولا وقار يريدون أن تتعرى النساء ويرتدي الرجال ملابس قشتالية دون سراويل داخلية، حتى الزواج وطقوسه يريدون محوها ما يكفيهم أنْ نقيم عرسين في الكنيسة والمنزل الآن يرجحون كفة الكنيسة ويمنعون رقصة السمرة والقيثارات والآلات الموريسيكية لا موشحات ولا أغاني تربى عليها الأجداد والأحفاد.

توقف أندرياس عن الحديث وانخرط في بكاء حاد له نشيج، فما كان من ريتا إلا أن تحدثه برقة بها مسحة من ألم:

- لا عليك أندرياس تلك قرارات لن تنفذ.. ربما كان الناس يتناقلون الأكاذيب فيما بينهم.

- لقد قرأ القرار على رؤوس الأشهاد في كل مكان، وأضافوا

ألّا يوقِّر الموريسكيون يوم الجمعة، ألّا يستخدموا أسماءً وألقابًا عربيةً، ألّا تتخضّب الموريسكيات بالحناء، ألّا يستحمَّ الموريسكيون في الحمامات، وأنْ تُهدم الحمّامات الموجودة.. كل هذا يطبق على كل موريسكي في قشتالة وغرناطة المسكينة حظيت بمراسم أشد قسوة من هذه أيضا... ماذا تبقى ليفرضوه علينا؟؟ يمنعون عنا الهواء؟ فليذهب فيليب الثاني للجحيم كجدته.

تلفت سانشو ليتأكد من خلو المكان، ثم اقترب من أندرياس وهمس:

- أعمل عقلك يا رجل.. اخفض صوتك وأنت تتحدث، فإن كان ما قلته صحيحا ستكون الأيام القادمة أشد ظلمة مما نحن فيه.

ليلة كئيبة قضياها في صمت، ريتا في كنفه هادئه تحاول فهم الأمور وتلك القرارات الغبية، أما هو فكان يرى التبعات التي ستحدث جراء ذلك المرسوم، صورة أندرياس الباكي لم تفارق ذهنه، ماذا تحوي تلك الكتب ليخشوها هكذا، هل للحديث بالعربية خطر على تلك الإمبراطورية الممتدة حتى سواحل العالم الجديد، هذا ما كانت سُمية تخشى حدوثه، وهو ما أكده حدس سعد القرطبي... «سيرحلوننا» كلمة راحت تتردد بعقله كثيرا، سيبعدون الموريسكيين عنوة

عن أراضيهم ومنازلهم، هؤلاء الذين مازالو يحتفظوا بطرق عيشهم سيكون عليهم تبديلها، الملابس والحمامات والنظافة عليهم أن يستبدلوا كل ذلك أيضا، وقع الأمر ربما سيمر في إشبيلية وأحوازها ولكن ماذا سيفعل الغرناطيون حقا؟؟ كيف سيتقبل الناس هذا الواقع المرير وإن كان الأمر يشمل قشتالة وأراغون وربما سيفعل أيضا بأرض البرتغال، يضيقون على الناس أكثر وأكثر ونسوا أن الموريسكيين أصحاب تلك الأرض أكثر عددا ولكن أقل عُدة وعتاد، لدى فيليب البنادق والمدافع وبوارج تجوب البحار، أما هم فلا شيء لديهم والأمل بالصدور مُحي أثره كغبار بدده الريح.

***

أصبحت إشبيلية متوجسة، الديوان توعد المخربين بعقاب شديد، الجند يجوب الطرقات بحثا عن قتلة الشاب القشتالي، والرهبان يجوبون حول بيوت الموريسكيون وحوانيتهم، المرسوم صار قيد التفعيل، وأندرياس يتابع عمله برتابة وخمول، صارت معظم غرف النُزل خاوية بعد رحيل قاطنيها، عاد كل إلى مدينته وقريته في إثر تعميم المرسوم، استيقظت لتجده جالسا على طرف الفراش على وجهه أثر الأرق والتفكير، لم تره في هذه الحالة من قبل:

- سانشو هل أنت بخير.

- نعم حبيبتي.. فقط لم أحظ بليلة جيدة.

- بما كنت تفكر طوال الليل.

- بكِ.

- وهل هذا سبب أنها ليست ليلة جيدة.

- ليس الأمر هكذا... كنت أفكر في مستقبلنا على هذه الأرض، فمن فرض القيود سيتبعها بقيود أخرى وأخرى ومن ثم سيبعدوننا عن الأندلس.

- لا أحد يستطيع فعل هذا.

- الملك عازم على الأمر كما قال الإنكا دي لافيجا.

- سانشو سيقاوم الناس، أما رأيت ما حدث أمس في الساحة.

- هل تظنين أن ذلك سيستمر، وستثور إشبيلية وغيرها.

- ربما... ولكن هذا القرار لم يمر مرور الكرام، وإن لم تنهض إشبيلية سينهض غيرها، بلنسية.. قرطبة... جيان... غرناطة.

- وماذا عنا نحن؟

اقتربت منه ولامست أنفه بظهر يده:

- سنبقى سويا مهما حدث.. ولن نترك تلك الأرض أبدا.

- أعدك

ذابت كلمته الأخيرة بين شفاهيهما وقبلتهما الطويلة قطعها طرقات سريعة بباب غرفتهما وصوت أندرياس من خلفه:

- سيد سانشو... أنا أندرياس أريد اخبارك بشيء هام.

فتح سانشو الباب بهدوء وتطلع بوجه الرجل المتوتر:

- مرحبا... أندرياس.

- مرحبا سيدي، رأيت دييجو العازف يقف قبالة باب النُزل منذ قليل وقد سأل عامل الإسطبل عنكما، وهذا الأخير يجزم بأن دييجو يرتب شيء لكما، جئت لأسألك هل حدث شيء يستدعي أن يتجسس ذلك الغجري عليكما إن كنتما بالداخل أو خرجتما؟

برزت ريتا من خلف سانشو مجيبة الرجل:

- هل مازال يقف عند المدخل؟؟

- لا رحل منذ قليل، أحببت فقط إخباركما بالأمر، وودت أن أشكركم على ما فعلتماه معي بالأمس.

ربت سانشو على كتف الرجل الحزين:

- نحن أخوة سيد أندرياس ولم نفعل شيئا.

- بل فعلتما. يكفي أنكما استمعتما لي في وقت كآبتي وحزني، لقد تشاورت مع زوجتي وأخواي وسنرحل عن إشبيلية إلى المغرب.

تدخلت ريتا وقد حمل صوتها ضيقا:

- لا تفعل.. هذه أرضك وتلك ديارك.

- ضاقت علينا جدران إشبيلية ولن ننتظر حتى يتم اتهامنا من ديوان التفتيش، سنذهب إلى حيث يمكننا أن نأكل ونلبس ونعبد ما نريد.

- سيحل الأمر يا أندرياس، ولن تنفذ تلك القرارات أبدا.

- سيدتي لقد بدأت السلطات في تنفيذ ما جاء في المرسوم الملكي، يداهمون الدور وأعلنوا عن مكافئات وعطايا لمن يشي بأي موريسكي مازال يتبع دينه ويمارس طقوسه سرا، لم تعد هذه أرضنا.

حدثه سانشو:

- الاختيار لك، وسيكون عليك تحمل تبعات ما ستختار، وأرجو أن تهتدي للصواب ولكن فكر جيدا.

- بالتأكيد سأبلغكما بموعد رحيلي، أعتذر عن الإزعاج وإن رأيت دييجو مرة أخرى سأخبركما، اليوم أعددنا طبق بايبا

شهي ولدينا السمك المقلي والمتبل بتوابل وصلت للتو من غرناطة، إن أحببتما سأرسل الفتى بالطعام إلى هنا.

- سننزل لتناول الغداء بالأسفل... شكرا لك.

- طاب صباحكما أيها العاشقان.

بعد الظهيرة جلسا ببهو النُزل، تناولا غذاءهما من البابيا وفاكهة طازجة قدمها أندرياس لهما، المكان خاو إلا منهما كانا يتسامران ويضحكان، وريتا تمنح هِرة بقايا الطعام، داعبتها كثيرا بينما يتذكران لقائهما الأول وكيف صارت الأيام بعد تلك اللقيا، تخلل حوارهما ذِكر حبلة الثيران وكيف كانت شجاعة، اخبرته أن الأمر لو تكرر ألف مرة ستخوض غمار تلك المغامرة لأجله، كانا على تلك الحال حين دلف فتى الإسطبل مسرعا، بحث عن أندرياس في أرجاء المكان وحين صادفه همس بأذنه دون أن يسمعاه، وما لبث أن جاء الرجل مهرولا وكل شحوم جسده ترتج:

- سيد سانشو.. رجال الديوان قادمون وبرفقتهم غارسيا وديييجو.

خبأهما أندرياس بخزانة كبيرة قابعة بالمطبخ، كان التصرف الأسرع والأمثل رغم ضيق المكان، كان سانشو قلقا حيال ما تحويه غرفته من صكوك ملكية تعود لسُمية

ومفتاح منزلها بالإضافة لكتابه المقدس الذي ورثه عن سعد القرطبي، كانا متلاصقان يتصببان عرقا وعينا ريتا تحاول فحص المكان عن طريق شق طولي بباب الخزانة... دلف الجند منتشرين في أرجاء المكان ومن خلفهم ظهر المحقق كوزمو برداءه الأسود وإزاره الأبيض ووجه الجامد الملامح، وقف يتطلع بجنبات المكان متفحصا أرجاءه حتى أتى أندرياس ووقف قبالته مرحبا، نظر إليه كوزمو لبرهة ثم تحرك متجاوزا إياه:

- أنت المسؤول هنا أليس كذلك؟

- نعم سيدي أنا أندرياس بن فرناندو.

استدار كوزمو واقترب من الرجل المرتجف وقال بنبرة ساخرة:

- موريسكي؟

- نعم سيدي.. ولكني أذهب للقداس وأتبع تعليمات الكنيسة كما أن أولادي يحفظون الكثير من الكتاب المقدس في مقر الإرسالية ويذهبون يوميا للكاتدرائية.

أمسك كوزمو بتفاحة فقدت جزء كبير من قوامها جراء قضمتين كبيرتين وأخذ يتأملها متحدثا مع الرجل:

- سيد أندرياس.. أنت كبير العمال هنا وما أعرفه أن السيد فرناندو مالك الفندق يعتمد عليك بشكل كبير في إدارة هذا المكان، هل رأيت أي شكل من أشكال الطقوس الغريبة تقام هنا، أو أي نزيل قد يساورك الشك ناحيته؟

- لا سيدي الفندق خاوي إلا من غرفتين.. رحل معظم النزلاء أمس.

- يبدو أنكم تقدمون تفاح ردىء لنزلائكم، فصاحب تلك التفاحة قضم منها قطعتين فقط.

- في الحقيقة أنا من أكلت منها.

- وهل كنت أيضا تأكل البابيا وحدك بملعقتين وكأسي ماء؟؟

تلعثم أندرياس وكوزمو يدور حوله وعيناه تجوب المكان، سرعان ما استجمع الرجل البدين شجاعته وتحدث بثقة وجدها مناسبة:

- سيدي هل هناك اتهام لي أو أن أحد أخبرك بأن لدينا مخالفات!

تجاهله المحقق وهو يشير لأحد رجاله قائلاً:

- اصعد إلى الأعلى وخذ معك بقية الرجال... فتشوا كل

الغرف جيدا حالما أنتهي من مراجعة سجلات النُزلاء.

التقت عيناهما ولم يجد أندرياس بد من تقديم السجلات للمحقق الذي جلس بمكان سانشو، قارورة ماء وكأس فارغ إلى جانب السجل الذي انهمك المحقق في مطالعته، وأندرياس يجوب المكان مرتبا الأغراض بعد أن حمل الأطباق إلى المطبخ، وقف أمام الخزانة وأخذ يحملق فيها وصوت أقدام الجند يطرق أذنه، ينتقلون من غرفة لأخرى تمنى ألا يجدوا شيء يدينه أو يدين ما تبقى من النُزلاء، أفاق حين نادى المحقق بإسمه فهرول بإتجاهه وما لبث أن توقف لاهثا أمامه، تأمله كوزمو ببرود ثم حدثه وهو يشير إلي سطر ما بالسجل:

- هذا الشخص... أين هو؟

- من؟

- سانشو بن طاهر الأشبوني.

- رحل في الصباح.

- إلى أين؟

- لا أعرف غادر لملم أمتعته وغادر مبكرا.

نهض كوزمو وهو يمط شفتيه ثم زين وجهه بإبتسامة

مقيته:

- هذا الموريسكي متهم بقتل شاب قشتالي وادعى كذبا أنه أحد نبلاء لشبونة وإن كنت تنوي مساعدته سيكون العقاب وخيم.

- أقسم بالعذراء أني لا أعرف بهذا الأمر، لقد رحل.

- وحده؟

- كانت معه تلك الفتاة الغجرية، أظن انهما تزوجا لأنها تقيم معه هنا منذ فترة.

- وهل سَمحت ببقائها هنا؟؟ هل المكان يحظى بترخيص لتواجد العاهرات به؟

- لا سيدي.. لقد دفع جيدا خلال فترة تواجده هنا والجميع يعرف قصة حبهما.

- حبهما!! إذن أنت تحتث معهما.

- الأمر لا يحتاج حديث كل شيء ظاهر للعيان.. إنها مغرمة به ولا تتركه وحده أبدا، أعرفها قبل أن يأتي ورأيت كيف تبدل حالها حين صارت معه.

- ألم تسمعهما يتحدثان عن المكان الذي سيذهبان إليه؟ رأيتهما يؤديان طقوس هرطقة أو أي شيء من هذا القبيل؟

- لا سيدي.. انهما يأتيان مع فجر كل يوم وقد لعب الخمر برأسيهما، يتضاحكان ويتمايلان بخلاعة لا تليق بالنُزل، وهو يستحم كل يوم من الجيد أنهما رحلا عن المكان.

كاد أن يقول كوزمو شيء ولكن رجاله انتهوا من تفتيش المكان، نزلوا الدرج ممسكين بشخص من قفاه، كان رجل أشيب ذو لحية كثة ويرتدي ملابس قشتالية، تأمله كوزمو مطلقا صفير قصير ثم سأله:

- ما أسمك؟

- خوان.. سيدي وأعمل لدى النبيل دي توليدو جئت لهنا لشراء بعض الأغراض الخاصة للنبيل.

- أنت موريسكي؟

- لا أنا من أراغون ولدت ببرشلونة من أبوين مسيحيين.

- هل تعرف ذلك الشخص الذي كان يقطن بالغرفة المجاورة لك؟

- رأيته مرة أو مرتين.. انه شاب لطيف ذو لكنة برتغالية.

أشار أحد رجاله من خلف الرجل بورقة، فما كان من كوزمو إلا أن أمر رجاله بأن يأخذوا الرجل للخارج والتفت ليواجه أندرياس دون أن يبالي بصياح الرجل الذي أخذ يثرثر أنه لم

يقترف شيء ليقبضوا عليه، ظل لبرهة مغمضا عيناه حتى خفت الضجيج ثم فتحهما مقتربا من وجه أندرياس الذي زاغ بصره بين عيني المحقق وحركة يده وسبابته بينما يقول:

- رأيت بعينيك الصك العربي الذي بحوزته، سنستجوبه فقط وسنطلق سراحة، من حسن حظك أندرياس أنك تنعم بسيد نبيل له كلمة مسموعة بين رجال إشبيلية، صل للمسيح ليباركك وعائلتك ويحفظ دون فرناندو مالك هذا المكان الموريسكي الدنس.

انهى كلماته الحادة والتفت إلي أحد رهبانه وأردف:

- أدخل الغجريين.

لحظات مرت وضاق المكان أكثر بوجود غارسيا بأنف مكسورة وعين متورمة وديیجو يلف شريط أسود على رأسه سليم وإن بدى وجهه أكثر شحوبا، تقدم أندرياس خطويتن وهو يبدل نظراته بينهما بإرتياع مصطنع:

- من فعل بكم هذا؟

نظرة من كوزمو أذنت لدييجو لينطق بصوته الخشن:

- ذلك القاتل البرتغالي الذي تأويه خطف ريتا، لقد اعتدى

على شاب قشتالي وصرعه أثناء العراك بين الموريسكيين والجند قاومناه ولكنه استغل الفوضى وهرب.

وضع كوزمو يديه على كتفي أندرياس مع انتهاء حديث دييجو، صمت دام قليلا حتى قفزت قطة على الشرفة تموء، سارت دون أن تأبه بهم إلي المطبخ، تابعها الكل بصمت ودهشة فصاح كوزمو ليوقظهم جميعا:

- حسنا... ما قولك يا أندرياس فيما قاله الرجلان؟

غمغم وهو ينقل بصره من القطة إلي الغجريين:

- لا أعرف... ربتا لم تخطف هي برفقة ذلك الشخص برغبتها كما رأيت، ولا أعرف شيء عن تلك القصة التي رواها دييجو... سيدي هل تسمح لي ستأكل القطة اللعينة بقايا الطعام النظيف.

تحرك الرجل متجها للمطبخ خلف القطة، أخذ يصيح فيها فركضت خارجة وكوزمو يشير لرجاله قائلا:

- هيا انتهت مهمتنا هنا...

خرج في تلك اللحظة أندرياس مبتسما:

- لو عرفت أي شيء جديد سأخبركم... عفوا لم أستطع ضيافتكم فالعدد كثير ولدينا أطباق وكؤوس متسخة.

دفع كوزمو الغجريين جانبا ليمر وحدثهما بغلظة:

- ابحثا عن عاهرتكما وستجدان الفتى... أريد ذلك الوغد البرتغالي حيا.

لكل منا لحظات مخلدة ما حيينا، برهة قليلة كانت كافية لتغير مسار حياتنا للأبد، تمر علينا الأيام ولكنها تظل محفورة في جدران الذاكرة، في تلك الخزانة بمطبخ النُزل، مر الوقت ببطىء كان عليهما تنظيم الأنفاس، المكان ضيق وزاحمهما القلق والفزع وخوف على أندرياس، أن يخطىء أو يخاف وكان هاجس سانشو الأكبر أن الرجل سيشي بأمرهما، يد ريتا طمئنته وهي تتابع من خلال الشق ما يحدث، ارهفت السمع وفهمت جل الحديث، لم يجدوا شيء في غرفتهم وذلك القط الغبي أتى للبحث عنها، يخدش خشب الخزانة ويموء... لحظات وجاء أندرياس وركله، مسكين ذلك الهر الساذج هرع خائفا بعد أن تلقى الركلة القوية، أندرياس يزفر ويشهق ويشير لها بالصمت ثم خرج ولم يمض كثير من الوقت حتى عاد وفتح لهما الباب.

الرجل خيب ظن سانشو ونجح في إخفاء كل شيء يخصهم بمعاونة صبي الإسطبل، والعجوز الأراغوني كان بحوزته صك مكتوب بالعربية، ومن حسن الحظ أن المحقق كوزمو لم يلحظ الجواد بالحظيرة، وداع قصير على

أمل باللقاء مع أندرياس وقطعة فضية للفتى الذي اخفى الأغراض وهيء الحصان للرحيل... تجملت السماء بسُحب لامست أطرافها حمرة مغيب حزين، رحلا غريبين يتوجسان الدروب والطرقات الخاوية إلا من ريح بارد يحفهما، وقع أقدام الجواد يرافقهما وسرب طير أبيض يبحر بمساء إشبيلية، الحذر واختلاس الخطوات على حين غرة من المارة القليلون بالدروب الضيقة، أواهما طلل منزل أندلسي قديم يُشرف على ناعورة فارقت الحياة، جدب ماء قناة لم تعد مياه النهر ترويها، أيام مكثا في البيت المهجور يترقبان قادم الأيام ليال قضوها أمام جذوات مشتعلة يمعنان التفكر في الحياة وسبيلها الأمثل، الخروج من إشبيلية.

***

هَل الربيع بنسائمه الرطبة وشمسه الفتية، وأغصان الوادي تزينت بخضرة بهيجة أحاطت بمنازل تلك القرية البسيطة الصغيرة، شهران مرا على تواجدهما وقد رحب كبير القرية بهما، في البداية توجس منهما ولكن سرعان ما أمن لهما بعد أن سمع قصتهما، كان ألفونسو مزارعا موريسكيا هَرما بسيطا، يشرف على حقل زيتون تضاءلت مساحته مع الزمن، ورثه عن أجداده ورعى أمره هو وأبناؤه وأولاد عمومته، القرية بها عشرة منازل تحيط ومعصرة زيتون، الكل هنا

يعمل وأكثرهم عملا بغلة ألفونسو الشهباء التي تقدمت حفل الزواج الذي أقامه الرجل لسانشو وريتا، لم يحتاجا الذهاب للكنيسة القريبة ولم تحصل ريتا على حفل زفاف غجري كما كانت تحلم، فقط موشحات أندلسية ودفوف وغناء للفتيات والرجال ونسوة يرفلن بالملاحف التقليدية رغم حظرها، كانت ليلة مميزة ومبهجة.. صار سانشو يصلي معهم في الحقل بينما ريتا والنسوة يحرسن الأنحاء، زيارات الرهبان ومحققين الديوان الدائمة للقرية كانت بمثابة جولة يتبدل فيها الحال، يَهرع سيرخيو ابن ألفونسو ليطلق عدة خنازير يحتفظون بها بحظيرة خاصة، ترعى أمام القساوسة والرهبان وجند الديوان مظهر كاف ليعطي المارة انها قرية مسيحية خالصة، حتى النسوة لا يخرجن من منازلهن إلا قليلا بوجود تلك الدوريات، حياة بسيطة عاشها سانشو الذي كان يود الذهاب لغرناطة للقاء آنا ابنة سارة، الأمر الذي كان يؤرقه ويقضي مضجعه حتى بوجود ريتا إبي جواره، كانت تتفهم ما يريد فعله وتقدر الأمانة التي يحملها على عاتقه، لا تعلم ما عليها فعله سوى أن تكون معه أينما ذهب، كثيرا ما جال بعقلها تلك الأحداث الأخيرة في إشبيلية التي تبعد مسيرة يومين عن مسكنهم البسيط بالوادي، غارسيا... دييجو.. أوفيليا.. والمحقق البغيض كوزمو لماذا لم يتركوهما في حالهما، جل ما أرادته هو أن تعيش مع من تحب، حتى

صدر ذلك المرسوم الملكي الذي يفرض الكثير من القيود على الموريسكيين، الأمر الذي احزنها فمنذ تلك اللحظة كل شيء تبدل، مخاوف خالتها كانت صحيحة ولكن سيلفانا كانت مخطئة بشأن سانشو.. إنه نبيل حقيقي شجاع وأمين حتى أنه لم يقرب مال أحفاد سُمية، لا زال يحتفظ بصكوك ملكيتها ومفتاح منزلها وكل ليلة يأتي على ذكر الذهاب لغرناطة.. فتسأله وماذا بعد غرناطة؟

«ستحتاج لتصريح خاص لتدخل غرناطة ولكن هناك بعض الناس يسهلون الأمر مقابل النقود» هكذا قال ألفونسو العجوز، أصرت ريتا على الذهاب معه رغم رفضه، ومع إصرارها تحدثت احدى بنات المزارع: «ريتا تحتاجين الراحة.. لأجل ذلك الطفل الذي ينمو بداخلك».. كان الخبر مفاجئا لم تخبر سانشو بالأمر من قبل، ظل يحدق بوجهها لا يعرف أيفرح لأنه سيصبح أب، أم يحزن لأنهاآخر من يعلم. في تلك الليلة لم يحدثها وظل خارج البيت الصغير حتى مطلع الفجر حين جاءته حيث يجلس، الجو بارد والريح يشتد شَعر بخطوات خلفه فاستدار ليجدها تقف على مقربة منه: «سانشو.. لا تذهب».

- لماذا لم تخبريني بأمر الطفل.

- كنت انتظر اللحظة المناسبة لأخبرك.

- ريتا هذه المرة الأولى التي تخفين عني شيئا.

- سانشو.. صدقني كنت أحسب أن الأمر مجرد توعك وسيمر ولكن النسوة أكدن لي حدوث الحمل.. مازال الأمر مبكرا.

اقترب منها وأطال النظر بوجهها وضياء الفجر يبرز رويدا بالأفق البعيد، وما لبث إلا أن ضمها برفق ثم تحسس بطنها براحة يده بلطف:

- أحبك ريتا.. وسعيد أني سأرزق بمولود منك، بل أنا أكثر أهل الأرض فرحا بهذا الأمر. ولكن السفر صعب على صهوة جواد جامح.

- كل ما أردته أن أكون معك وإلى جوارك.

- أنا معك دوما... وحالما أعود من غرناطة سيكون علينا الاختيار بين البقاء هنا والذهاب لمكان آخر، أهل القرية هنا يحبوننا ولن تشعري بغيابي سيملؤون عليكِ المكان وسيتهمون لأمرك.. سيرعاك ألفونسو وبناته حتى أعود.

- سانشو.. أخشى أن.

- سأعود لأجلكما أعدك، والآن ابتسمي فضحكتك هي الشيء الوحيد القادر على هزيمة ظلام المستقبل.

4

الإنكا

ضوء شحيح تسرب عبر نافذة ضيقة إلى ظلمة ذات بَرد، وهو مُكبل بسلاسل وأساور من حديد مثبتة بحائط حجري بارد الملمس، منكس الرأس مبعثر الشعر غير مبال بمن دلف عبر باب زنزانته، لعله يكون الموت هذه المرة بعد أيام من التعذيب والاستجواب، وقع خطوات ضيفه بدت بطيئة متوجسة قبل أن يستقر أمامه، مضت لحظات صمت ثم نطق بنبرة حزينة:

- مضى ما يقرب من ثلاث سنوات وها نحن نلتقي مرة أخرى وفي مكان جديد، وددت الترحيب بك في غرناطة بشكل لائق يا صاحبي، ولكني لا أجد سوى الآسى والحزن، كيف آلت الأمور لهذا الحد؟ ما الذي حدث يا رجل ليكون هذا مصيرك؟

رفع سانشو المُكبل رأسه بروية حاول سبر أغوار الظلام للتأكد من محدثه، رغم الظلمة عرفه وبدى على شفتيه ابتسامة شاحبة، عيناه تلألأتا بدمع فَرح لرؤية صاحبه القديم، وخرجت الكلمات متهدجة:

- هل أنت حقيقي؟ هل هذا أنت يا دي لافيجا؟!

اقترب منه أكثر وأزاح خصلات شعره المبعثرة والملتصقة بفعل العرق على جبينه جانبا:

- نعم أنا هنا يا سانشو... وكل هذا حقيقي.

- ولكنك ازدت سُمنة واكتملت لحيتك.

- يقولون أني بلحيتي هذه أشبه الملك.

- ليس هناك من يشبه ذلك المعتوه فيليب، أتمنى رؤية وجهه والسلطان ابن أمية يذيق أخيه دون خوان الهزائم تباعا.. الثورة مشتعلة في البشارات وغدا ستصل إلى طليطلة ومدريد.

- إذن ما سمعته كان صحيحا.

- هذا يتوقف على من سمعت منه.

- سَمعت أنهم قبضوا على أحد المتمردين الذي حاول تحرير بعض السجناء وأنه برتغالي، شيء ما بداخلي حدثني أنه أنت، رغم مرور أعوام على آخر لقاء لنا كنت أعرف أننا سنلتقي مجددا، ربما ليس بهذه الطريقة... أتعلم عندما أحصي أيام سعادتي على هذه الأرض يكون ذلك اليوم في مقدمتها أو بالأحرى هو اليوم الوحيد الذي حصلت فيه على الحرية من كل شيء، وكان آخر لقاء لي بكما أنت وريتا هناك

في حفل الغجر، كنتما زوجين متناغمين تحملهما الألحان وتنبت الأحلام بموطئ أقدامهما، الصخب والضحكات وغجريات يرقصن بغنج، كانت ليلة ترف لا مثيل لها... اختفيتما بعدها عن الأعين، وعرفت فيما بعد أن ذلك القس كوزمو زوج قريبتك أوفيليا قام بتفتيش الفندق الذي تسكن فيه، وأنه طاردكما.. بحثت عنكما كثيرا وأملت أن تنجوا وترحلا بعيدا عن تلك البلاد ويبدو أنكما نجوتما ولكن لم تعرفا للرحيل معنى.

- فقدتها.. فقدت ريتا، لم استطع حمايتها من هؤلاء القشتاليين، كنت أضعف من حمايتها والفرار بها إلى الشاطئ الآخر.

خرجت كلماته بصعوبه، بدى أنه يحاول التماسك ولكن حاله تبدل وازداد وجهه شحوبا ثم أنفجر باكيا، انتحب وسالت دموعه، جسده المُكبل بالحائط كان يرتج بعنف، وبصوت غمرته سيول من دمع، اقترب منه دي لافيجا وأحاط رأسه بكفيه:

- اهدئ يا رجل لقد عهدتك أقوى من هذا يا سانشو... ألست أنت القائل بأن ما كتب علينا سنراه، كل شيء حدث لسبب ويبدو أن الأمور لم تسير بشكل جيد. سانشو.. أعدك أنني سأحاول مساعدتك لتخرج من هنا بأي طريقة ممكنة.

***

في لحظات الوداع تُسحب الروح بعيدا عن الجسد، نصبح أجسادا خاوية إلا من ذكرى وأمل بلقاء قريب، مضى الجواد يضرب الأرض بعنفوان وريتا تقف مودعة سانشو المسافر برفقة كاماتشو ابن أخ ألفونسو، رحلة طويلة تلاشى فيها الرفيقان المرور بالطرق الرئيسية، دروبهما كانت أكثر وعورة وشجنا، مرا بقرية خاوية على عروشها ولا يعمرها إلا بومة تطارد الفئران المستأنسة بجذوات مشتعلة تضئ ليلتهما، كانت رفقة كاماتشو طيبة فالرجل ماهر في كل ما يخص اشعال النيران وصيد وسلخ الأرانب، تحدث كثيرا عن زوجته واطفاله الذي ادعى أن ملاك الرب هبط من السماء وعمدهم جميعا دفعة واحدة، حكاية واهنة من خيال ألفونسو العجوز لم يصدقها القس ولكن أهل القرية اجزموا بذلك، قالوا أنهم رأوه في ليلة ظلماء يهبط أمام منزل كاماشتو له جناحان عظيمان من نور وما لبس أن صار في هيئة بشر ليدلف إلي البيت، الجميع كان لديهم قصص وروايات مختلفة تثير الضحك كتلك الأحاديث عن ثورة قادمة تعم مدن وبلدات الأندلس أو كتلك القصص عن انتصارات العثمانيين على أسطول قشتالة بالبحر، ثلاثة أيام على الطريق وليلتان هادئتان بذكرى دافئة عن العائلة والأبناء والزوجات، من ذا الذي يضاهي رجلا لديه بيت وزوجه وأطفال يكبرون على

عينه، كلما كبرت هموم العالم تضائلت همومه بينما يضمهم إلى صدره كل ليلة، أن تصبح رجلا مسؤولا على أمور إلى جانب عملك، حياة الفلاحة وبكور الصبح المفعم بضباب له بَرد وحديث كاماتشو الذي أثار في نفسه كل تلك الأمور المتعلقة بالبيت والعائلة وريتا، تلك المرأة التي تركت كل شيء لأجله، حياتهما يرويها شغف كلاهما بالآخر، حبيبين يرجوان حياة هادئة هانئة، ابتسمت السماء وشعت النجوم لضحكته وهو يفكر في مولودهما القادم، ماذا سيكون عليه أن يسميها إن كانت صبية... وكيف سيكون إن كان ولدا، سُمية قديسة حقا لم تمنح الرضيع وحده الحياة، فبموتها منحته أيضا حياة جديدة ارتحل فيها حيث كانت ريتا تعيش هائمة وحيدة مثله حتى وإن كثر الزحام حولها.

غرناطة كانت قلب العالم النابض، أطياف كثيرة من الناس... ألوان وزخم وزحام ووجوه مألوفة رغم انه يزورها للمرة الأولى، لهجة جديدة يسمعها لأول مرة، مدينة موريسكية خالصة أكثر صخبا من إشبيلية، طرقاتها ودروبها مزدحمة كثيرا عن لشبونة، وعلى حافة نهر حدرة الصغير جدا يجلس المتعبون والمارون ليستريحوا، جند كثيرون لم ير مثلهم مجتمعين من قبل، يطوفون بالشوارع والساحات القريبة من سفح قصر الحمراء المرتقي فوق الرؤوس، قصبة عتية قابعة فوق التلة وفوق برجها الأكبر يخفق

علم قشتالة، أزقة البيازين عبقة بعطر الربيع، أشجار تظلل الطرقات والبيوت عامرة بضجيج لعب الأطفال، إن كانت الملابس صارت قشتالية إلا أن الوجوه تبدو وكأنه عاش بينها لسنوات، اتخذ وجهته إلى البيازين قاصدا ذلك الرجل الذي أوصاه ألفونسو بزيارته، انه يعرف كل البيوت الموريسكية التي سكنت غرناطة يدري جيدا من رحل منهم ومن بقى ومن جاب الأرض حتى استقر بمدينة المسلمون الأخيرة في الجزيرة... فرج بن فرج أحد سادة غرناطة وينحدر من نسل بني سراج وزراء بني النصر، ورث النبل ورعاية مصالح الموريسكيين.

استقبلهما الرجل بحفاوة وضايفهما بمنزله، فاض عليهما بكرم أبهر سانشو الذي أقرأه السلام من ألفونسو ثم سَرد عليه أمر آنا وزوجها، كان عليه التأكد من صحة حديثهما فكانت صكوك ملكية بيت سُمية وكيس نقودها بالإضافة للمفتاح بين يداه، أعجب الرجل بفطنة سانشو وشَعر بصدق حديثه ولم يمض الكثير من الوقت حتى جيء بآنا وزوجها، قدمهما جميعا معرفا بعضهم ببعض ثم غادر الغرفة، الصمت كان يفرض سطوته على الغرفة، آنا متوجسة والزوج ينظر إليهما بارتياب، لم يعرفاه ولكنه قص على مسامعهما ما حدث في إشبيلية وكيف أضحت اختها أوفيليا، تلك المسكينة التي قبلت بأن تتزوج كوزمو لتصبح دمية له، تنفذ

كل ما يريد خوفا وطمعا في حياة تظن أنها أفضل، كانت آنا تأسف لما حاق بأختها وكيف تبدلت شخصيتها، كانت أوفيليا دوما تشعر بالخوف من ممارسات أمهما التي ورثت دينها عن سُمية، كانت ترتعب لما تسمعه من حكايات عن ديوان التفتيش، ليتها تستطيع أن تتحرر من ذلك المدعو كوزمو... أمنيات حظيت بعدها آنا على إرث لم تتوقعه، بكت حين تحدث سانشو عن جدتها وكيف كانت تحبهن جميعا، منحها مفتاح منزل سُمية واخبرهما بأمر خزانة الكتب. تم تحضير العشاء ودعاهم فرج جميعا للأكل، ظلت آنا مع نساء البيت والرجال وحدهم مع احاديث متفرقة اثناء تناول الثريد واللحم، أحوال غرناطة وإشبيلية ولشبونة وطلبات الغرناطيون المقدمة إلى ديوان التحقيق وحاكم غرناطة بل ورسائلهم للملك يرجونه لتعليق تلك القرارات بالمرسوم، الثورة... كلمة ألقى بها فرج مراراً وسط تأكيد بأن قرارات الملك فيليب لن تمر هكذا دون مقاومة. حديث لم يعجب كاماتشو فقال بحدة:

- سيكون هناك بطش بالنساء والأطفال والعجائز إن فشل الأمر.

رمقه فرج بنظرة طويلة ثم اومأ برأسه قائلا:

- بالتأكيد فكل حرب لها خسائر، المخاطرة واجبة من أجل

ما نؤمن، ولم تظن أنكما خاطرتما بحياتكما في سفر طويل فقط ليؤدي صاحبك الأمانة إلى أهلها.

تدخل سانشو قائلاً:

- غرناطة تعج ببني جلدتنا آلاف منهم استطعت تميزهم بسهولة، لو اجتمع كل هؤلاء على كلمة واحدة لاستطاعوا طرد القشتالين منها.

وأضاف زوج آنا:

- اخشى أن يكون كل هذا مجرد أوهام وتمنيات لن تحدث، الناس يقولون أن الوضع يزداد سوء وأن الرسائل والطلبات المقدمة لحاكم غرناطة مجرد محاولات عبثية. فيليب عازم على سلخنا أحياء.

بعد كلمات الرجل دام الصمت وتوقف الجميع عن الأكل، لحظات من شرود مرت حتى تحدث فَرج سائلا كاماتشو عن حال والده وكيف اصبح، لم يره منذ سنوات ولم يعد يبيع محصوله وزيته بغرناطة، الأحوال تبدلت والقشتاليون يتنمرون بأهل القرى، صيد سهل للنبلاء الذي يستولون على الأراضي بالقوة، اغتصاب للدور والأرض وتشتيت للعائلات القروية، جل أحواز إشبيلية هاجروا إلى المغرب، ومن يقرر المقاومة يطلقون عليه متمردا أو قاطع طريق يخرب القرى

القشتالية ويسلب القوافل بضاعتها، قرى كثيرة أصبحت خاوية بالطريق الرئيس المؤدي لإشبيلية.. درب اتخذاه عائدين إلى قريتهم بعد أن أصر فرج على أن يبيتوا ليلتهم عنده، مع خيوط الفجر الأولى غادرا غرناطة ودعهما فرج وتمنى لهما السلامة وأمل باللقاء.. الشوق لريتا ملأه ببهجة سبقته فوق الدرب الممهد، تخلص من حمل ثقيل وعبء وصية سُمية التي سيصعب حتى على آنا تنفيذها، اخراج الكتب من بطليوس سيكون شيئا في غاية الصعوبة، على كل حال صار مع الشابة مفتاح منزل جدتها ومقدار جيد من المال يكفي لأن تشتري بيت فخم بغرناطة أو يفتتح زوجها حانوت يبيع في الأقمشة كما كان في إشبيلية، ولكن الأمر لم يعد يعنيه، كل ما يهمه هو العودة إلى ريتا.

لا أحد يمنع مُحب من لقاء حبيبته سوى القدر ومجموعة من القتلة المتعصبين، ولم تكن ديار آل ألفونسو سوى قرية ضمن أربع قرى تعرضت للخراب والحرق، رحل الموت حاملا معه الأرواح ومخلفا ورائه جثث تطفو على أرض اجتاحتها الدماء، ليست تلك القرية التي تركوها منذ أيام كانت الحياة تدب في كل شيء، والامن والسلام يطغى على الوجوه وتفيض به القلوب، لوهلة ظنا انهما بُحلم ترجل كاماتشو فزعا وهرول متعثرا بالاجساد والرماد، بيته تفحم ولا أثر لزوجته واطفاله الثلاث، وأبيه ملقى على ظهره وعيناه

تحملق في السماء دون حياة، وحصان سانشو يزفر متوتراً والمكان يعمه الدخان، نزل سانشو عن صهوته ودار في الأرجاء وكاماتشو يصرخ لما أصاب أباه... ألفونسو العجوز حُز عنقه وأحالت الدماء ثوبه الأبيض للون أحمر قان، ووسم صدره بحرق لصليب بموضع القلب، والمنزل خاوي إلا من أغراض مبعثرة ولا أثر لريتا في الجوار. ركضت في الزوايا وبين الأشجار بحث عن أي أثر يثبت أن هناك احياء ووجد بين الأجام القريبة من معصرة الزيت طفل كان يدعى يوسف بن أنخيل الزيات، زائغ البصر وعيناه حمراوين من كثرة البكاء، يرتجف وقد أصابه بَرد الخوف وظل يحدق بوجه سانشو فزعا حتى افاضت عيناه بالدمع والحسرة على ما أصاب أهله والديار.

- جاؤوا بخيلهم للسقيا ولكنهم كانوا قوم سوء، قشتاليون حاول الجد ألفونسو أن ينهرهم عما يفعلونه من تحرش بالفتيات والنساء، تطاولوا عليه وعلى إيرناندو حتى أنهم دهسوا الأخير بسنابك جيادهم، وبعد راحوا ينقضون على كل من حاول المقاومة، عاثوا فسادا في القرية ومن حاول الهرب طاردوه... قتلوا أمي وأبي وأختي سمعت صراخها، ماتوا جميعا وأنا اختبئ هنا... كان لديهم صلبان حديدية يوسمون بها صدور الناس يحرقونهم... هذا جل ما رأيته.

انتحب الصبي وانفجر باكياً، وسانشو يربت على ظهره متحدثا إليه والألم يعتصر وجدانه:

- اهدأ يا يوسف... اخبرني هل رأيت ريتا.

- نعم.. كانت مع بعض النسوة والأطفال يركضن باتجاه الحقول الغربية.

اعتدل سانشو واقفا وجال ببصره في الدمار الذي يحيط به، ألسنة الدخان والبيوت المدمرة وكاماتشو الذي يحتضن جسد والده يهدهده منتحبا، لم يمض كثير من الوقت حتى امتطى حصانه وراح ينطلق باتجاه الحقول الغربية، مر بين جذوع أشجار الزيتون مناديا بإسمها، يعلم أنها على قيد الحياة، حدثه قلبه بهذا، عاد في الموعد كما وعدها ولكنها لم تكن في استقبالة، دار بجواده في المكان حتى شعر أن لا جدوى مما يفعله، إن كانت ذهبت غربا فسيمضي في أثرها بحثا، لم يكن هناك سبيل متاح لفقدان الأمل، إنها في مكان ما تنتظره بشغف، حبس دموعه وطحن الألم قلبه النازف على فراقها، وجد نفسه يردد اغنيته عنها والتي طالما ألقاها على مسامعها بسعادة، ولكن هذه المرة خرجت كلماته بحشرجة وشجن:

- ريتا.. أيتها الجميلة سأستيقظ كل صباح لأجدك بجواري.. ريتا أيتها الجميلة عيناك ملجئي من صخب الحياة.. ريتا يا

جميلة الجميلات لا أحد يضاهي روعتك بجميع البلدان... سأجدك يا حبيبتي مهما كلف الأمر.. سأجدك يا ريتا.

أفاق من حالته هذه على صوت صراخ يوسف الصغير، حث الجواد ليعود أدراجه إلى القرية، ومن بين الأشجار رآهم... ثلة من الفرسان القشتاليون يحيطون بالمكان، يدورون حو كاماتشو والصغير الباكي، ظل يتابع ما يحدث.. سخريتهم وضحكاتهم وأحدهم يركل صدر صاحبه ليسقط أرضا، أقدام الخيل تتخطى الجثث وتدهسها، أحصاهم فكانوا ثمانية فرسان وعربة على متنها قفص حديدي يجرها حصانان، سُحب الصغير يوسف إلى القفص بينما انهال الجند القشتالي على كاماتشو ضربا، حاول المقاومة وقد تملكه الغضب ولكن ليس هناك أسهل من مجابهة رجل غاضب، نالوا منه وجروه ليلقى به داخل العربة... ظل سانشو كامنا خلف الأشجار يتابع تفتيشهم للدور والمكان كانوا يتحدثون عن عدة قرى أصابها مثل ما حاق بالقرية، جماعة دينية متعصبة تجوب الأرجاء وتقضي على مضاجع الموريسكيين.. يفعلون ما وجب على الملك فيليب فعله، كانوا ينتشرون في المكان بطمئنينة أن الموتى لن يستيقظوا لمجابهتم... كان سانشو ينوي التحرك لمجابهتم خلسة حين سَمع صيحات ووقع أقدام خيول تقتحم المكان، رجال ملثمون على جياد قوية دوي رصاصات وصرخات... والتقى الجمعان لم يكن يفهم

ما يحدث فأمامه كانت معركة طاحنة بين هؤلاء الرجال والجند القشتالي، وكان عليه إخراج الصبي وكاماتشو... اندفع بجواده إلي ساحة القتال شق طريقه متفاديا الضربات نحو العربة، ترجل قافزا من على صهوة حصانة وأخذ يحاول فتح الباب الحديدي ومن الداخل كان يوسف يستجديه بان ينقذهما بينما جحظت عينا كاماتشو لما رأه خلف سانشو... حاول أحد الجند القشتالي الفتك به ولكن سهم أصاب صدر الفارس ثم سهم آخر استقر في عين القشتالي الذي سقط عن جواده في تلك اللحظة التفت سانشو ليجد على مقربة منه أحد الخيالة ممسكا بقوس يشده ويكمل تصويبه على القشتاليين.

خفت هدير المعركة رويدا حتى تلاشى بسقوط آخر الجند، والتف الخيالة حول سانشو ورفيقيه بينما تحدث كبيرهم صاحب الجواد الأحمر بعد أن اعطى الأمر لرجاله بالانتشار وحصد الغنائم:

- هل أنتم من سكان تلك القرية.

أجاب سانشو:

- نعم نحن كذلك.

- تقبلوا تعازينا وبالغ حزننا على ما أصاب أخوتنا هنا... يبدو

أننا تأخرنا في المجيء.

نقل سانشو بصره بين كاماتشو الزائغ العين والفارس ذو الثياب العربية:

- من أنتم.

- يسموننا عصابة المورو ويصفوننا بأننا قطاع طريق.. ولكن سمنا كما تحب نحن موريسكيون رفضنا سلطة التاج القشتالي.. متمردون على حُكم فيليب وأجداده، ما حاق بقريتكم أصاب عدة قرى.

- هل وجدتم أي أحياء هاربين أثناء قدومكم إلي هنا... شابة تدعى ريتا ومعها بعض النسوة والأطفال.

- لا يا صاحبي لم يحالفنا الحظ في وجود ناجيين.. كنا نتجول في الأنحاء مقتفين أثر تلك العصبة من القتلة بعدما هاجموا إحدى القرى بجوار الجبل الذي نقطن فيه وحين رأينا أعمدة الدخان جئنا إلى هنا على الفور.. يمكنكم أن تأتوا معنا إن أردتم أو أن هناك مخططات أخرى لديكم.

جال سانشو ببصره في المكان وقال بألم وحسرة:

- سيكون علينا البحث عن زوجاتنا والأطفال.

- لدي مجموعة من الرجال تجوب الأنحاء وحالما يجدونهم

بالتأكيد سيجلبوهم إلي الأمان.

- سأذهب للبحث عن زوجتي.

حث الفارس حصانه للتقدم ناحية سانشو، أزاح اللثام عن وجهه وحدثه:

- اسمع أيها الشاب... أعدك أننا سنبحث عن زوجتك ولكن صاحبيك بحالة يرثى لها، انظر لذلك الصغير الخائف إنه بحاجة للراحة ولدينا كهف قريب آمن... وصاحبك هذا يبدو أنه لن يقوى على التحرك والبحث وهو بهذه الحالة... تعال معنا قبل أن يأتي المزيد من القشتاليين للبحث عن رفاقهم القتلى.

صاح كاماتشو:

- علينا دفن موتانا.

- وسنصلي عليهم أيضا.. نحن في خدمة كل أبناء جلدتنا.

أشاح كاماتشو بوجهه الدامي بعيدا وحمل سانشو يوسف الصغير واضعا إياه على ظهر حصانه أمام نظر الرجل الذي سأله:

- ما اسمك أيها الشاب.

أجاب دون أن يلتفت:

- سانشو.. وهذا يوسف وصاحبي يدعي كاماتشو.

- حسنا سانشو.. أنا أدعى بيدرو هرنانديز أو القرطبي.

التفت سانشو وحدق بوجهه مستغربا، عقد الرجل حاجبيه وأردف:

- هل هناك خطب ما؟

- لا شيء... علي أن اجمع بعض الأغراض الخاصة.

في تلك اللحظة شَعر سانشو أن حكاية جديدة ستبدأ، القرطبي أرسله الله في اللحظة المناسبة ككل من التقاهم عبر سنوات عمره، رجل يحمل لقب صديق قديم وراه الثرى، والأكثر ابداع في صنع القدر، أن الرجل متمرد كما أحب سعد أن يكون، سينبش أرض الأندلس كلها بحثا عن ريتا، سيقاتل من أجل الضعفاء والمستضعفين، هكذا سيكون الأمر أمام أي عائق... سيقاتل من أجل حياة ابنه القابع ببطن زوجته...

أمضى عشرة أشهر يبحث عنها مقتفيا شذى عطرها، كل مرة يعود للجبل حاملا على عاتقه ذلك اليقين بأنها حية ترزق في مكان ما وربما تبحث عنه ايضا، جاب قرى الأندلس وجبالها حتى قاده بحثه إلى إشبيلية، ها هو يعود للمدينة التي فر منها هاربا بصحبتها... زار بيت خالتها التي ارتعات

وبكت حين سمعت بما حدث لربيبتها، لامته وضربت صدره على ما فعل بها، كان عليه أن يبقى معها ولا يفترقا هذا جل ما أرادته ريتا، حبيبته التي ينزف قلبه على فراقها كل يوم، لم تكن الخالة تعلم أنه يختلي بنفسه كل ليلة منذ رحيلها ويبكي وحده في الظلام، يحدث طيفها ويحسب كم بقى على أشهر ولادتها وكم صار عمر ابنه إن كان ذكر أو أنثى، لم تكن تدري بأن سانشو الكائن أمامها هو جسد ميت وروح تهيم بحب ريتا، صرخت فيه وطردته من منزلها وانتهى الأمر بمواجهة غارسيا ودييجو ولكن هذه المرة لم يكن وحده كان معه كاماتشو وثلاثة رجال وصبي، يوسف الذي صار مشاغبا وعين سانشو ومستكشفه وجد الفتى ذو الثلاثة عشر عاما راحته في الجبال وبدأ يتأقلم مع واقع فرض عليه والآن يجوب معه المدن المزدحمة.. وذاك الشاب ذا اللحية السوداء والعينين اللامعتين يدعى كارلوس الغرناطي، فر من سجن غرناطة منذ أعوام والتحق بعصبة بيدرو، لص موريسكي قضى حياته في هروب مستمر من الموت، أما ذلك الصارم المتجهم دوماً من قادش يدعى انطونيو بن المنصور نَشاب بارع، ورابعهم خيال يدعى المريني سياف لا يشق له غبار... معركة حي الدباغين هكذا سُميت حين تعارك الغجر مع عصبة من الموريسكيون، وعَلم كوزمو بالأمر وكان في أثرهم حتى اختفوا عن الأنظار، كأنهم لم يكونوا هنا... لم يستطع

القبض عليهم ولكنه رآه... يطلقون عليه الآن « دون سانشو المحرر... متمرد يجوب ريف إشبيلية وهضابها بحثا عن حبيبته.. أسطورة يتغنى بها الصبية ومن يحملون قبس من أمل، على الطريق المؤدي للجنوب صادف شخص يعرفه جيدا، أندرياس يقود ثلاث عربات تجرها بغال قوية وعلى متنها عائلة الرجل، نسوة وأطفال وشيوخ وشباب منحهم وجود سانشو ورجاله الأمان، ابتسمت الفتيات ونشدت احداهن بصوت عذب كلمات عربية غلب عليها العجم أوحي إليها بها في لحظة سكينة عمت المكان:

- تِك شبيلة تولّيولها

ما قتلوني ما حياوني

داك الكاس اللي عطاوني

الحرامي ما يموتشي

جات خبارو في الكوتشي...

كانت لصوتها شجن والشمس تأفل من خلف الركب الحزين، طريق إشبيلية عائدون إليها لم يقتلوها ولم يحيوها بهذا الكأس الذي اجبروهم على شربه على بوابات المدينة، خمر ليتأكدوا من أنهم ليسوا على عقيدتهم التي تحرم الخمر ولحم الخنزير، ولم يمت كوزمو اللص كما وصفته الفتاة

فقط اخباره عكرت صفو الركب وسرعان ما ضحكوا عليه حين تذكروا وجهه بعد هروب سانشو ورجاله، كان عليهم الذهاب لقادش فأنطونيو يعرف بحارا قد يقلهم إلى طنجة وبعدها يتجهون إلى شفشاون أو سلا حيث القراصنة من أبناء وطنهم، موريسكيون أيضاً يعيشون في الضفة الأخرى يشكلون مقاومة بحرية شرسة، يسلبون سفن قشتالة، كانت رحلة طويلة برفقة أندرياس وعائلته المغادرين لأرض الأندلس، حزن الرجل لما أصاب ريتا وحدث سانشو قائلا:

- المحب الحقيقي سيسلك كل السُبل لأجل محبوبته وريتا مغرمة بك، لن تترك أي أمل يقودها إليك، حلبة الثيران شاهدة على فعلها، أتمنى أن تجدها وإن لم تفعل ستجدك هي.

وداع حار وبكى أندرياس وهو يركب السفينة مع أهله، ظل سانشو قابعا على الرصيف يراقب ابحارهم للضفة الأخرى حيث يقبع جثمان صاحبه سعد، تُمطر والغيم يطمس ما تبقى من أشعة الشمس الذهبية، سنوات مرت أصبحت أسطورته تهدد القرى القشتالية، قصصه يقصها النساء على مسامع الأطفال ليلاً، عن فرسان موريسكيين أتوا من ماض غابر، يحاولون إعادة ملك ولى، هكذا كان أهل القرى الموريسكية يتحدثون عنه مع تلك الأخبار عن انتصارات في البحر والبر،

نشوة أعادت لأحفاد الأندلسيين بعضا من أمل، أما سانشو فتبدل كثيراً، كان يعتمر شاشية كبيرة من القش ميزته عن بقية الرجال في جبل كهف بيدرو، استغنى عن الملابس القشتالية وبدلها باخرى عربية، أطلق على نفسه عبد الله سانشو الأشبوني، كابوس يؤرق نوم النبلاء والإقطاعيين، سانشو الذي تربي في كنف ديوان التحقيق، أصبح الآن شخصا آخر يبحث زوجته وابنه يدافع عن الضعفاء ويسعى لحرية ابناء وطنه ودينه، يجوب الأرض مع رجالة لرفع الظلم عن الفلاحون، وبرغم ما حازه سانشو من مجد إلا أنه مازال هناك شيء ينقصه، لم يحصل على مبتغاه بعد، مازالت كلمات دي لافيغا تتردد في عقله، ومازالت روح سعد تحثه على المقاومة، يستدعي احاديثه مع سُمية كل ليلة، ولا ينفك من مطاردة طيف ريتا في كل مكان، حتى جاء اليوم الذي وصل رسول من فرج بن فرج إلي الكهف، الرجل أخبر بدرو أن الثورة قامت هناك جنوب غرناطة، في جبال البشرات.... وعلى الجميع أن يلبي النداء، صار قلب الأندلس ينبض مرة أخرى... واصبح للأندلسيين مَلك يجمع شملهم اسمه محمد بن أمية.

***

قبيل الفَجر غادر الأنكا مقر ديوان التفتيش بعد أن سَمع

قصة سانشو بأكملها، كان حزينا مكتئبا بما حاق بصاحبه الموريسكي، ضحى بنفسه مقابل هروب صديقيه من الثوار، إنها لحظة يأس راودته ربما لفقدانه ريتا أراد التخلص من حياته بهذه الطريقة، يأس من العثور عليها بين الأحياء فقرر المجازفة بالذهاب إليها بعالم آخر، ولكن ليس سانشو من يفعل هذا... كل التقارير الواردة واستجوابات الأسرى أثبتت أن « دون سانشو « أحد قادة ثورة البشرات، قاطع الطريق الذي أنهك قوات دون خوان النمساوي وانتصر علي فيالق قشتالة في ألميرية وسهل أجيجر، ليس هذا هو سانشو الذي يعرفه، إنه أكثر شراسة وغضبا رغم كونه أسيرا جريحا مكبلا بقبو مظلم، قاتل ببسالة ومات رجاله وبقي وحده، ذكره بثوار البيرو وأفكارهم عن تحرير أرضهم من الغزاة الإسبان، نهايتهم كانت محتومة أمام البنادق والمدافع، ولكن ثُوار غرناطة وجبال البشارات مختلفون، هؤلاء الذي ينتمي إليهم سانشو لديهم إيمان شديد بالنصر، وبالفعل يحرزون تقدما واستطاعوا دحر جيوش عظيمة واستردوا مدنا كثيرة بجنوب الأندلس... لهذا هو هنا في غرناطة، جيء به لكفاءته العسكرية ليقاتل في صف الملك فيليب وبين صفوف أخيه القاسي دون خوان، الموت لمن يخالف تاج إسبانيا والرب يغفر ويرحم القتلى إن كانوا مسيحيين حقا... رأى الإنكا وحشية الجنود القشتاليين حين داهموا بعض قرى الثوار،

والدماء وقود الحرب كما قال دون خوان، لكل حرب ضحايا وعلى الموريسكيين أن يستسلموا أو يبادوا، ولكن حتى خيار الإستسلام كان نهايته الموت والتنكيل.

ليلة طويلة قضاها دي لافيجا بصحبة كأسه والدون دي مندخار حاكم غرناطة، كلاهما لا يعجبهما ما يحدث ولكن من ذا الذي يستطيع مجابهة أخ الملك؟! يحتاج الرجل لنصر مصطنع ليزيد غرناطة الخائفة خوفا، ولعل سانشو سيكون الأضحية التي يحتاجها دون خوان النمساوي، يخشى أن يحدث هذا بينما هو مكتف اليدين ولا يستطيع فعل شيء لصاحبه القابع بالظلام... في الصباح ضجت الأروقة والقاعات بقصر الحمراء بحديث عن قتلى بسجن غرناطة، مذبحة قام بها الرهبان، دماء الرهائن والثوار الأسرى تجري كنهر متدفق داخل السجن، ضحكات ومباركات للفعل ووجوه الموريسكيين من أهل غرناطة ممتقعة، البيازين حزينة ودروب المدينة خاوية، غرناطة تبكي أبنائها ودي لافيجا يَهرع برفقة مستشاريه لرؤية ما حدث بالسجن.

وصل أثناء نقل الجثث إلى خارج السجن، تراصت عدة عربات تجرها البغال، وانهمك الجند في وضع الأجساد فوق بعضها البعض، الدماء في كل مكان وباحة السجن كئيبة كغرناطة الباكية، قتل ما لا يقلُّ عن مائةٍ وخمسين سجينًا

من أعيان غرناطة وأهلها، والزنازين خاوية معتمة بعد أن كانت تعج بالحياة، وعلى ضوء المشعل رأى على الجدران كلمات عربية في كل الزوايا، مجزرة أثارت حنق وغضب دي لافيجا، لم ينج أحدٌ سوى أنطونيو دي بالور والد ملك الثوار محمد بن أمية، سيستخدمونه للتفاوض... باشر دي لافيجا عمله واستجوب الجند الذين أجمعوا أن الأمر صدر من راهب بديوان التفتيش يدعى ريكاردو ماتمورس، كان فعله رد فعل على هزيمة الجيش أمام المتمردين المتحصنين بجبال البشرات والآن يزحفون لغرناطة، أضاف أحد الجند أن الأمر له علاقة بهؤلاء العصبة الذين هاجموا ديوان التفتيش لتحرير قائد يدعى الزمار... إنه صديق سانشو الذي جاء لتحريره وكانت النتيجة أن الأشبوني صار أسيرا ينتظر الموت كرفاقه، انهى دي لافيجا جولته بالسجن وغادر إلي ديوان التفتيش حاملا بداخله غضبا وحنقا على ما حدث، ما كان يجب أن يُقتل الأسرى.. ما هكذا يُعامل الأسرى، ولكن من سفك دماء الأزتك والإنكا ونهب ثروات المايا قادر على أن يفعل أي شيء.

بغرفة احتجازه كان سانشو على حالته مُعلق إلى الحائط، رغم برودة المكان كانت حرارته مرتفعه، جروحه المقطبة لإبقاءه حيا تنزف من جديد، تذكر تلك الليلة التي وقف يقاتل فيها الجند خارج مقر الديوان ليتسنى لرفيقيه الهرب

بعد محاولة فاشلة لتهريب الأسرى، فعل ما يجب أن يُفعل منحهم سبيلا للنجاة هذا واجبه تجاه الثورة واتجاه ما أمن به وما منحته ريتا ذات يوم، التضحية واجب لنجاة من يحبهم كذلك فعلت هي ذات يوم، وجهها آنس وحدته بتلك الزنزانة المعتمة، طوال الليلة الماضية كانت ترقص كتلك الليلة بالنزل في إشبيلية، طافت بأرجاء العتمة متوهجة وحين فرغت من رقصها اقتربت منه تمشي هونا فبكى... حدثها أنه مشتاق لها وأعتذر عن ذهابه لغرناطة وتركها وحدها، لم تنطق بحرف وعيناها تحضنانه وهو يحكي ويحكي، حتى انسل ضوء الفجر من النافذة الصغيرة فبخرت، تبدد وهجها بعد خفوته... اختفت وتركته وحيدا يعاني داخل محبسه بديوان التفتيش حتى انفرج الباب وظهر ظل ممدا على الأرضية، كان دي لافيجا بوجهه الشاحب وعيناه الضيقتان، وبدت على شفاه سانشو بسمة ألم وهو يقول:

- حسبت أن لحظتي حانت.

وقف الإنكا أمامه ومط شفتيه قبل أن يقول بنبرة كئيبة:

- لعلك أحسن حظ من هؤلاء الذين قضوا نحبهم بسجن غرناطة.

جحظت عينا سانشو وظلت معلقه على وجه الإنكا الجامد

الملامح والذي أردف مجيبا على ما يدور برأس صاحبه الأسير:

- قتلوا كل الأسرى في الليلة الماضية، ولم يبق سوى من يستحق التفاوض عليه.

عروق جسده المشدود إلي الحائط انتفضت، قشعريرة غريبة تملكت وسأل الإنكا:

- كيف ماتوا.

- هل يهم أن تعرف كيف أفاضت أرواحهم؟

- لأعرف كيف ستكون نهايتي.

- سأخرجك من هنا أعدك، كنت أود القدوم إليك بأخبار سارة ولكن المدينة حزينة، الصمت والوجوه الممتقعة وحظر التجول بالطرقات.. الموريسكيون خائفون ولا يخرجون من منازلهم.

- يستحقون الخوف، لقد خذلوا فرج بن فرج ذات يوم.

- إنهم ضعفاء لا يقوون على الثورة يا سانشو.

- بل يستطيعون إن هي إلا حياة واحدة ولكنهم اختاروا ألا يكونوا معنا في صفنا نحن أمل الأندلس في العودة.. انتصاراتنا في البشرات تشهد بمجد نصنعه.

- أنت قلتها اختاروا... حين وجب عليهم الاختيار اختار كل منهم ما هو أنسب له ولأهل بيته.. سيعيشون مهما كانت الظروف سواء انتصرتم أو هزمتم، وحتى وإن كانت قواتكم تنتصر الآن في البشرات وأرجاء الجنوب إلا أن فيليب لن يبقى مكتوف الأيدي.. لقد منح الملك لأخيه أمرا بقتل كل متمرد ثبت انضمامه للثوار الموريسكيين، هناك قرى تهجر الآن بسبب الثورة أناس ليس لهم ذنب يُشردون بسببكم أنت ورفاقك.

- صار لسانك قشتالي المحيا يا صاحبي.. تدافع عن القاتل وتلوم المقتول، إن كان الأمر يتعلق بالاختيار فقد اخترت جانبك سيد دي لافيجا.

رمقه الإنكا طويلا قبل أن يسند ظهره للحائط مستترا بالظلال:

- أجبرت على أن أكون في هذا الجانب، نصفي القشتالي منحني حياة أفضل مما حظى به بعض المولودين لأم بيروفية، لا أحب إسبانيا ولكن علي التواجد فيها كذلك وجودي على مائدة الخطط مع دون خوان ورجاله، لم أختر شيئا إلا وأرغمت على تركه، حبيبة في البيرو وحياة تمنيت أن تكون هادئة فانتهى بي المطاف بحرب مستعرة بين قومك وقوم أبادوا موطني ونهبوه... الإبحار مع التيار ينفع

في منحنا جزء من الحياة التي نريد.

- الإبحار مع التيار قد يؤدي للغرق والاصطدام بصخور حادة كفاية لقتلنا.

- نسيت أنك بحار يا صاح.

ردد سانشو متهكما:

- بحار سيء الحظ أكثر من بركة بن يونس المصري.

ضحك الإنكا لتذكره ذلك الشخص الكئيب الذي كان دوما يفكر في الهرب، قصة ألقاها سانشو على مسامعه ذات يوم على السفينة التي جائت به إلى تلك البلاد.. أفاق على صوت سانشو وهو يقول:

- ستكون حياتك طويلة على هذه الأرض يا دي لافيجا.. فاذكرني حين أخطر ببالك، لعل هناك من سيضحك على تفاصيل حياتي.

- ماذا أقول؟

- قل كان عابر سبيل بأرض كانت يوما مِلك لأجداده، بعد أن كان بحارا هائما يجوب جزر المحيط بحثا عن غاية الحياة، أو عاشق بائس أغرم بحسناء غجرية كانت هبة له من السماء.. فارس أذاق القشتاليين مرارة الهزيمة ورفع

راية الثورة فوق الأبراج والتلال... ربما أموت قبل أن أرى النصر ومحمد ابن أمية يدخل غرناطة على صهوة جواده منتصرا وإلى جواره ابن عبو والحبقي ومأمون وعبد الرحمن وكاماتشو.. ولكنهم سينتصروا حتما وسيذكرنا الناس مادام ذكر الأندلس باقيا، أتعرف ودت أن تشاركني ريتا تلك الحرب كانت ستحب ذلك... ودت أن أرى ابني وأربيه على يدي ويَكبر على عيني، وحين أموت يذكر كم كان أبوه فارسا مغوارا، أشياء كثيرة تمنيتها ولكنها لم تحدث لسبب ما.. ولكن كما قلت أنت ذات يوم لا يحظى المرء بكل شيء والحقيقة الراسخة التي تيقنت منها الآن في محبسي هذا.. أننا نصادف الناس المناسبة في الوقت غير المناسب.. أخبر إن رأيت يوما ريتا أخبرها أني أحببتها حقا.

- سأخرجك من هنا.

انسلت دمعة من طرف عيني سانشو

- لا أظن هذا.. جروحي تتعفن أستطيع الشعور بذلك، حتى لو استطعت الهرب فسأموت من الحمى.

اقترب دي لافيجا منه وأخذ يتفحص الجراح:

- ستكون بخير.. أنت تهذي من الحمى فقط.

- ما هو مقدر سيكون يا إنكا وما سعينا لشيء إلا وصلنا

له، الموت قدر مكتوب على كل حال وها أنا قد نلت نصيبي من هذه الحياة، التي أوشك على فقدانها بفعل رهبان ديوان التفتيش.. كانت البداية بالديوان وستكون النهاية أيضا، ولا يهم إن اختلفت أسماء المدن التي ستحتضن رفاتنا.. لشبونة... إشبيلية أو غرناطة سأحظى بما حظي به سعد القرطبي.. وسأقابل سُمية وكل الطيبين في عالم آخر لا ظلم فيه ولا نَصب.

كاد دي لافيجا أن يقول شيئا لولا أن فُتح الباب بغتة ودلف الضوء ومن بعده الظلال، مجموعة من الرهبان يتقدمهم كبيرهم ريكاردو الأعرج، كانوا يحملون مشاعل عدة وبدت اقنعتهم المخروطية أكثر رعبا وهم يقفون بصمت على مقربة منهما حتى تحدث ريكاردو قائلا:

- من سَمح لك بالدخول إلى هنا؟

أجاب دي لافيجا بحدة:

- يبدو أنك لا تعرف من أنا.

- بل أعرفك جيدا وأعرف سبب قدومك لغرناطة.. ولا أظنك أتيت لإستجواب الأسرى الموريسكيين. أليس كذلك سيد دي لافيجا؟ أم وجب علي أن أناديك بالاسم الذي تحب، أرى أن علينا التحدث أكثر والتعارف لمعرفة إن كنت تحب

أصولك المتدنية أكثر من الرب و الملك وإسبانيا.

كانت السخرية جلية في كلمات ريكاردو الذي تابع:

- تعددت زياراتك لهذا السجين وأود أن تخبرنا بمدى معرفتك له.

كاد أن يصرخ بوجهه قائلا هذا صديقي ولكنه لم يقوى على ذلك، تألم ووجد نفسه يقول:

- استجوبه بأمر من الدون خوان لمعرفة أماكن وخطط الثوار.

- ثوار ؟؟

ضحك ريكاردو وكررها ثم صمت بغتة واقترب من الإنكا قائلا بخبث:

- هل يذكرونك بثوار كوزكو ومحاولاتهم الفاشلة في احتلال المدينة هناك في البيرو؟ لقد كانوا وثنيين أعداء للرب كهذا المعلق أمامك.. أم أنك تتعاطف معه؟

تجاوزه دي لافيجا قائلا ببرود:

- لن أخوض ذلك الجدال معك.. لقد انتهيت من التحقيق مع السجين.. سأرحل.

لم يكد يصل إلى الباب بَعد حين باغته صوت ريكاردو محدثا إياه:

- جُبن يليق بهجين.. أرجو أن تكون قد استمعت باستجوابك لذلك المهرطق فبعد الغد سَيعدم في ساحة الرملة بحضور دون خوان... بالمناسبة أبلغه تحياتي.

تيبست قدما الإنكا على حافة الباب حاول الحفاظ على ما تبقى بداخله من قوة، ثم التفت إلى ريكاردو وتطلع إليه قائلا بازدراء:

- لا تتسرع في الأمر ولا تطع رغبتك في الانتقام ممن جعلوا منك مسخا.. مع أنني صرت أثق بأنك خلقت هكذا، رفاق ذلك الأسير ما يزالون بداخل غرناطة وقد أصبحنا على بعد خطوة من الإمساك بهم.. ترى ماذا سيفعل الملك مع شخص أضاع فرصة ثمينة للقبض على المتمردين المختفيين بغرناطة؟! ماذا سيكون ردك حين يسألونك لم قتلته دون إكمال التحقيق والقبض على رفاقه؟! هل تظن أن فعلتك بسجن غرناطة ستمر أيضا دون ريكاردو ؟؟ أم أناديك القس ريكاردو هل الرب حقا راض عما فعلته هناك بباحة السجن؟ كف يدك عن الرجل لعله يكون سببا في إخراجك من مأزق وضعت نفسك فيه.

كانت كلمات الإنكا تفيض بتحدٍّ وثقة لم ترق للراهب

ريكاردو، الذي توعد سانشو بعذاب قبل الموت وبعده قبل أن يرحل هو ورجاله ويغلقوا باب الزنزانة خلفهم تاركين إياه في غياهب الظلام مرة أخرى، اليأس يتملك منه والموت يحوم بأنفاسه الباردة في أرجاء الغرفة المعتمة.. و لا أثر لريتا سوى بخياله.

***

ليلة صعبة قضاها دي لافيجا بين ثنايا الفِكر والذكريات باحثا عن مخرج لصاحبه، عليه أن يفعل شيئا قبل أن يظفر الموت به ويقف ذلك الراهب فوق جثته مهللاً فرحا، لا يستحق سانشو تلك النهاية التي يخطط لها ريكاردو، ماذا لو كان كل الثوار في جبال البشرات مثل سانشو رجالا لا يهابون الموت؟ رجل أحب فأخلص لمحبوبته وجاب الأرض باحثا عنها، حُبها كان ثورة في نفس الشاب الذي قاوم لأجلها، ما الضير أن يصارع رجل القدر حتى يستجيب له، أن يسعى ويفعل كل ما عليه حتى يفوز بما يريد، فليس للإنسان إلا ما سعى.. كما أخبره سانشو ذات يوم، وفعل الشاب الموريسكي ما عجز هو عن فعله، قلب دي لافيجا بين أصابعه تمامه كانت يوما لخليلته كوتشوا، تخلى عنها وتركها لمصيرها المحتوم وفَرغت زجاجة النبيذ وخوت الكؤوس والليل يمضي ببطء، وصديقه الوحيد مُكبل ينتظر النهاية....

الإحساس بالعجز والقهر أمر كان قد نساه منذ سنوات، والآن يعود ذلك الشعور من جديد يطرق جسده كألف مطرقة خرجت للتو من كوة الكير لتضرب كيانه وتقض مضجعه، ألقى بالكأس الفارغ على طول ذراعه ليرتطم بالحائط ويتهشم... تتناثر البلورات الزجاجية في أرجاء الغرفة والعرق يتصبب من جبينه، ليته يستطيع التواصل مع ثوار البشرات... ليته يرسل لسلطان الموريسكيين ذلك المدعو ابن أمية ويخبره أن أحد رجاله بحاجه للعون، لكن لا مجال لمثل هذه الأمور الآن، إن كان يجب على أحد أن يتحرك فهو وحده، لن يتركه يذهب إلى كوتشوا بالعالم الآخر ويخبرها أن الإنكا دي لافيجا خذله كما خذلها من قبل.

مع شروق الشمس نهض والنوم يصارع جفونه، غسل وجهه وحدق بالمرآة القديمة على حائط غرفته، وعلى ضوء النهار الخجل أخذ يتطلع لانعكاس صورته، مضى زمن لم يسأل نفسه هذا السؤال: من أنا؟ القائد غارسيلاو دي لافيجا ذو النسب القشتالي الرفيع؟ أم الإنكا دي لافيجا ابن البيرو! يدعونه فيما بينهم الهجين والآن صارت الكلمة على لسان من يبغضون وجوده، ورث عيني أمه وسمرتها بل وملامح البيرو الخالصة كالدماء التي تسري بعروقه، ولم يحصل من والده سوى إسم منحه تلك المكانة التي يجب أن يستغلها، اختار ملابسه بعناية بزة عسكرية حمراء ثبت على صدرها

عدة أوسمة كانت يوما لوالده، مشط شعره الكثيف وجمعه بعقدة من شريط أحمر خلف رأسه، وتميمة كوتوشا ثبتها على معصمه ثم خرج مناديا رجاله بأن يستعدوا للرحيل للانضمام للجيش الذاهب لحصار فيرجالة.. الأمر كان مفاجئا لمساعديه ولكنهم جهزوا الخيل دون معرفة وجهتهم، وبينما هم يفعلون ذلك عاد للداخل واعتمر قبعة سوداء ولثاما من نفس اللون... ولم يخرج حتى أخبروه أنهم مستعدون للذهاب.

***

فُتح باب الزنزانة ودلف جندي طويل القامة عريض المنكبين، تطلع إليه سانشو بصمت وهو يقترب منه وما لبث أن أخذ يفك قيوده، لم يترك سانشو ليسقط احتضنه وهمس بأذنه بالعربية:

- أنا هنا لنجدتك... أرسلني الإنكا دي لافيجا.

سأله سانشو وهو يحاول أن ينتصب واقفا رغم الإعياء:

- أين هو.

منحه الرجل لفافة من قماش وخوذة معدنية:

- سنلتقيه فور خروجنا من هنا.. عليك أن ترتدي هذه

الملابس.

ساعده على ارتداء الملابس العسكرية وتثبيت الخوذة وقناعها المعدني، وتحركا وبدت خطوات سانشو غير متزنة فحدثه الرجل بصوت خفيض:

- حاول التماسك يا رجل فلم يبق لك سوى القليل لتغادر هذا المكان.. أعرف أن هذا الزي ثقيل بعض الشيء ولكنهم يفتشون الرهبان جيدا منذ دخل رفاقك إلى هنا متخفيين في ثياب الرهبان.. قتلوا العديد من الحُراس ولم يفلحوا في تهريب القائد الزمار وابنته كان الموت أسرع منهم.

عبر أروقة الديوان سار سانشو متحاملا على آلامه، تجاوزا مجموعة من الجند وقد رمى عليهم صاحبه التحية فبادلوه إياها... بدا أنهم يعرفوه ولم يبالوا بحركتهما البطيئة حتى فُتح الباب ليدلف ضوء النهاء وعبير هواء غرناطة، الأمر أشبه بحلم قيد التحقيق، خطوة... اثنان... ثلاث وخرجا من باب الديوان إلى رحاب غرناطة، لم يسيرا كثيرا حتى انكفأ سانشو على وجهه، سقط وتدحرجت خوذته اللامعة بعيدا، رصدته عين حارس البوابة الذي هرول إليهما وساعد الراهب على النهوض وانكشف وجه سانشو، ظل الحارس يحملق بوجه سانشو الملىء بالكدمات، كاد أن يصرخ مناديا أصحابه ولكن صاحب سانشو أمسك برأسه وأدارها بعنف لتصدر

رقبته طرقعة مرتفعة، جحظت عيناه وفارقت روحه جسده ولازالت أصابعه تتشبث برداء سانشو الذي أعاد وضع قناعه المخروطي فوق رأسه وعيناه تجوب المكان للتأكد من أن أحدا لم يرهما... تركاه أرضا وهرعا إلى زقاق جانبي حيث كان ينتظرهما الإنكا مرتديا ملابس خادمه الذي غادر مع الرجال ملثما إلى حصار فيرجالة.

في منزل قريب من سوق القيصرية بغرناطة جلس دي لافيجا بينما يسكب "أندريه" الماء الدافئ على رأس سانشو الذي استلقى داخل حوض رخامي، انساب الماء مزيلا ما علق به من أوساخ وعرق وبعد أن فرغ من اغتساله، تفحص الرجل جروحه ونظفها وأخذ يضع المراهم الطبية عليها، والإنكا صامت يتابع حتى فرغ أندريه من مهمته وغادر لتجهيز الطعام، ابتسامة امتنان زينت وجه سانشو الشاحب وهو يتطلع لصاحبه الذي قال بهدوءه المعتاد:

- جد أندريه كان طبيبا موريسكيا شهيرا هنا بغرناطة.. ولم يمانع الرجل حين أخبرته أنني بحاجة لمساعدته في تهريبك من الديوان.

- سيبحثون عنا في كل مكان.

- القائد دي لافيجا في طريقه للانضمام للجيش الآن وقد سُجل خروجي بالفعل على بوابات غرناطة.. واما عن أندريه

فسيرافقك في الليل إلى حيث تريد.

- وماذا عنك ؟! تعال معي إلى لوشة سيسعد السلطان ابن أمية بانضمامك لنا.

- يجب أن أذهب إلى معسكر الجيش قبل انكشاف أمر غيابي.. فقط أبلغه سلامي وأخبره أن ما يفعله يؤرق ليال فيليب وأخيه دون خوان.

- ذلك الأخير هزمته مرتين دون مدافع أو بنادق... سقط في الأفخاخ والكمائن مثل هر ساذج.

- الحرب مازالت مستمرة يا سانشو وأوروبا كلها تدعم الملك في القضاء على ثورتكم.

- سننتصر.

نهض الإنكا وتوجه إلى مائدة في ركن الغرفة تعج بالزجاجات، تناول إحداها وأخذ يصب لنفسه كأس محدثا سانشو الذي استلقى مغمض العين:

- أشتاق للعودة إلى البيرو.

- فلتفعل إذن..

- بالتأكيد سأفعل ذات يوم ولكن هناك بعض الأمور العالقة والتي يجب علي إنهائها هنا.

- إنكا.. لماذا أنقذتني؟

- ألم تكن ستفعل لو كنت مكانك؟؟

- ولكنك خاطرت بمكانتك وكل شيء لأجلي...

- وكذلك فعلت ريتا لإنقاذك في حلبة الثيران وأنت أنقذت رفاقك.. منحتهم فرصة للحياة وبقيت لتؤمن ظهرهم بينما ينسحبون.. من الصعب أن تجد صديقا مخلصا هذه الأيام وقلة من يفتدون أنفسهم بأرواح من يحبون.

- لعلهم يحسبون أني ميت الآن.

- عد إليهم يا سانشو.. وابحث عن ريتا ولا تيأس مادام قلبك ينبض.

دام الصمت طويلا وغفى سانشو وشارفت زجاجة الإنكا على النفاذ، وحين دلف أندريه للغرفة كان دي لافيجا يدندن ممسكا بتميمة كوتشوا، حاول ألا يزعجه وهَم بالمغادرة ولكن صوت الإنكا أوقفه:

- هل هناك شيء يا أندريه؟

- لا شيء سيدي ولكن أريد أن أعهد إليك بمفتاح منزلي بغرناطة، إن أحببت أن تبقى هنا.

- سنرحل جميعا الليلة يا أندريه.

- أعرف ولكن قد يكون هذا رحيلي الأخير عن غرناطة وأود أن تحتفظ بهذا المنزل حتى أعود.. فكما تعلم كل أهلي غادروا وما هي إلا أيام ويتم تنفيذ قرار ترحيل أهل غرناطة عن منازلهم، لا أود أن يأخذ قشتالي منزل أجدادي هذا.

- بالتأكيد ستعود إليه ذات يوم.. سنرحل في المساء سويا وأتمنى أن تسير الأمور كما خططنا ولا ينكشف أمرنا.

السكون غمر المنزل الأندلسي البسيط حتى هبط الليل وما إن انتصف حتى أمطرت السماء على غرناطة، غيم أسود ومطر كثيف والطرقات خاوية، خرج أندريه أولا واستطلع الطريق ثم أشار لهما، البرق يضيء السماء وثلاثتهم يمتطون خيولهم على الدرب المؤدي لباب المدينة، كان كل شيء على ما يرام حتى ظهر الموكب الحربي، درزينة من الفرسان يقطعون الطريق ورغم المطر والظلام عرفهم دي لافيجا، رجال دون خوان الذي كان يتوسطهم مرتديا درعه الذهبي وعباءته الحمراء، تنحى ثلاثتهم جانبا تحيط بهم النظرات الثاقبة، وقع أقدام الخيل وصوت المطر وطابور من الفرسان العائدين من معركة أثرها بادٍ على الوجوه، انتظروا حتى رحل الفيلق متجها إلى الحمراء ثم تحركوا باتجاه البوابة، وعندها أوقفهم الحرس وسألهم عن أسمائهم ووجهتهم

تعامل أندريه معهم وأخبرهم أنهم تجار ذاهبون إلى اشبيلية ولكن الحارس لم يقتنع، أخذ يدور حول خيولهم ويحدق بوجوههم ثم سأل سانشو:

- ما اسمك ؟؟

- سانشيز الغرناطي.

تركه ثم توجه إلى الأنكا وسأله:

- وأنت ما اسمك.

- كوزمو جونزاليس.

كاد الحارس أن يقول شيء ولكن أندريه كان أسبق سأله بصوته الخشن:

- هل ستحقق معنا طوال الليل يا رجل؟

- أنا أؤدي عملي فقط... هناك هاربون يبحث عن ديوان التفتيش ولا أقصد أن أعطلكم ثم أن هناك أوامر ألا يخرج أحد من المدينة.. يمكنكم البقاء هنا حتى الفجر والمضي بعد ذلك.

- يجب أن نذهب إلى اشبيلية تجارتنا في الطريق إلى هناك ولا أحد يرعاها سوى الخدم.

- عذرا سيدي هذه الأوامر.. المتمردون وقطاع الطريق قريبون جدا من غرناطة وكما رأيتم عاد الدون خوان إلى غرناطة وهذا يدل على أن المعارك محتدمة بالخارج.. أنا أمنعكم من الخروج خوفا عليكم فقط.

- سنتحمل العواقب أعط رجالك الأمر بفتح البوابات.

قالها الإنكا بلهجة حادة، تأمله الرجل بنظرة طويلة ثم أشار لرجاله بفتح البوابة واستدار بعدها محدثا الإنكا:

- أتمنى أن تلحقا بتجارتكم قبل أن يسلبها المتمردون.

كانت نبرته متهكمة ولكنهم لم يبالوا به، فقط حثوا خيولهم على الخروج من البوابة الكبيرة، ومن خلفهم راح الظلام يبتلع غرناطة والمطر يهطل بغزارة لم يشهدوها من قبل...

***

بزغ الفجر ببطء في الأفق، كانوا قد توقفوا عند أطلال منزل قديم احتموا فيه من المطر، السيل يغمر الطريق ولا سبيل لمواصلته، الخيل يأبي ويخشى المضي قدما وجذوات النيران انطفأت، كانوا صامتين معظم الوقت وعقل كل منهم يهيم بوادي سحيق... حين استيقظ سانشو كانت أشعة الشمس تسقط من كوة بالسقف، لم يجد رفيقيه في الجوار ولكن خيولهم مازالت موجودة بالمكان، تلصص من داخل

مكمنه على المكان بالخارج، لا أثر لهما أخذ يجول في المكان بنظره حتى أحس بحركة خلفه استدار ليجد سيدة عجوز تقف على الباب... تطلع إليها مستغربا وإن بدت ابتسامتها هادئة، كانت تحمل سلة في يدها وفي اليد الأخرى عصا غليظة تتكأ عليها، قطعت الصمت بصوت رطيب ولم تفارق بسمتها شفاهها:

- المطر كان غزيرا هذه الليلة.

- نعم كنا بطريقنا إلى إشبيلية وتوقفنا هنا للاحتماء.

- المرة الأولى التي أشهد فيها هذه الأمطار هنا.

- غرناطية أنتِ؟

- لا من كاستيا دي مانشا أتيت هنا مع زوجي جاء للحرب بعد أن مات ابني في جبال البشرات... قتله المتمردون الخونة.. منحنا دون خوان منزلا قريبا من هنا إن أردت أن تأتي وتتذوق أنت ورفاقك يَخن لحم الخنزير.

- شكرا لك يا أمي.. نحن سنغادر فور قدوم رفاقي.

مدت يدها إلي سلة وأخرجت تفاحة نضرة ومنحتها إياه قائلة:

- أنت بحاجة للأكل جيدا فأنت هزيل للغاية.. ما سبب تلك

الندوب والكدمات بوجهك.

- شجار بحانة في غرناطة.

- أنت من غرناطة إذن ؟؟

- نعم أنا من هناك.

- حسنا.. سعدت بلقاءك وأحذر من قطاع الطريق وأولئك القتلة الموريسكيين.

رحلت السيدة ولم يمضي وقت طويل حتى عاد أندريه ودي لافيجا، وجدوه يقضم آخر ما تبقى من التفاحة، رمقاه باستغراب وهو يسألهما عن اختفائهما المفاجئ، أجاب أندريه:

- كان علينا اصطياد شيء للأكل.

وأضاف الإنكا :

- من أين حصلت على هذه التفاحة؟

- منحتني إياها سيدة عجوز كانت مارة من هنا.

تبادلا النظرات لبرهة ثم قال أندريه :

- علينا الذهاب الآن.

جمعوا أغراضهم على عجالة وامتطوا الخيل، وما إن

خرجوا من بين الأطلال رأوهم، جند كثيف يحيط بالمكان، كانوا محاصرين تماما والبنادق مصوبة إليهم، الخيول تدور حول نفسها متوترة كأصحابها الثلاثة وقائد الجند القريب منهم يحدثهم بالقشتالية:

- لا داعي للمقاومة.. فقط عرفوا بأنفسكم وامضوا إلى حال سبيلكم.

قال أندريه:

- نحن تجار من إشبيلية وعائدون إليها.

- حسنا كل ما عليكم هو إبراز أوراقكم الخاصة ويمكنكم المرور.

ختم كلمته وهو يشير لرجاله بخفض أسلحتهم، وتقدم بخطوات واثقة نحو أندريه مستطردا:

- كنا نمر من هنا حين اخبرتنا سيدة أنها وجدت شيئا مريب هنا ورجالا غرباء في الانحاء.. فجئنا للاستطلاع.

ابتسم أندريه للرجل وحث الجواد ليتقدم خطوتين قائلا:

- من الجيد أنكم تقومون بمهامكم في أجواء الحرب المرعبة هذه.

وما إن صار قائد الجند بجوار الجواد حتى باغته أندريه

قابضا على عنقه، جذبه أمام عيون رجاله الذين رفعوا البنادق بينما الرجل يرفع قائدهم أمامه على صهوة الجواد وهو مازال يخنقه، حاول القائد التملص ولكن قبضة أندريه كانت مُحكمة حول عنقه، وصاح دي لافيجا فيهم:

- إياكم والإقدام على شيء مجنون سيموت قائدكم.

أجواء من التوتر والخوف والبنادق المصوبة إلى صدورهم والقائد يغمغم محاولا قول شيء ما، ولكن أصابع أندريه انغرست أكثر بعنقه لتمنعه عن الحديث ليقول بدل عنه:

- سمعتم ما قاله الرجل... إياكم وأن تفعلوا شيئا أحمق تندمون عليه.. سنمر بهدوء وسنتركه بعد ذلك.. أعدكم.

أجابه الصمت فكرر حديثه مرة أخرى والرجال مازالوا قائمين شاهرين بنادقهم في وجوههم، وسانشو يقول بالعربية محدثا رفيقاه وهو يشهر سيفه:

- سنمر من خلالهم عنوة إذن.

جاوبه أندريه:

- تمهل.

ومع آخر حروفه صاح مساعد القائد قائلا بالقشتالية:

- لكل حرب ضحايا... وقائدنا ستحمله ملائكة الرب إلى

الجنان.. أطلقوا النيران.

دوي الرصاصات صم الأذان، صهل الخيل متألما وجحظت عينا القائد والبارود يخترق جسده، انبعث من فوهات البنادق دخان كثيف وبعدها انقض الجند شاهرين سيوفهم وهدرت حناجرهم بصياح زلزل الأرض تحت أجساد الخيل المحتضر... وحده جواد الإنكا لم يصاب، بينما حاول سانشو النهوض متكأ على سيفه أما أندريه فلم يكن أكثر حظا منهما، مرت الرصاصات من صدر القائد القشتالي ونفذت إلى جسده، كان يحتضر ورفاقه يحاربون عددا كثيرا من القشتاليين، قاتل سانشو ببراعة رغم جروحه القديمة، والإنكا راح يظفر بأرواح رجال كانوا يوما ضمن جيشه.. معركة شرسة بين رجلين ودرزينة من الجند الغاضب... تكالبوا عليهما وسانشو يسقط هذا ويصرع ذاك.. ودي لافيجا يدفع جواده للتقدم وسط أسنة الرماح والسيوف، كاد أن يسقط حين تعلق أحدهم به ولكن سانشو أنقذه، الدماء تتناثر وغطت وجه سانشو وصدره، وتخضب جواد الإنكا بالدم.. وأمام بسالتهم انقض مساعد القائد على سانشو، اصطك السيفان وأخذا يدوران حول نفسهما في مبارزة عنيفة، كان سانشو أقل مهارة من الرجل ولكن الأخير كان غاضبا مما أفقده قدرته على التركيز.. فكان سيف سانشو أسبق إلى قلبه من نصله الذي أراد أن يحز به عنق مبارزه.. سقط القائد

الجديد للجند وأطلق أحدهما النيران ليصيب كتف الإنكا... ووسط معركة شارفت على الانتهاء ظهرت السيدة العجوز مرة أخرى.. خطفت بصر سانشو فتابع خطاها ودي لافيجا النازف ينادي فيه بأن يركض نحوه.. وحين التفت سانشو إليه كان الجند قد تكالبوا على جواد صاحبه وأسقطوه ولما استدار إلى حيث كانت المرأة ارتطمت عصاها الغليظة بوجهه.. وكان هذا آخر ما رآه.

***

بعد أيام في غرناطة..

سار دي لافيجا مرتديا بزته العسكرية محاطا بالحرس وسط زحام شديد، يده معلقة بجبيرة إلي صدره الخاوي من الأوسمة، الجميع يسيرون بذات الاتجاه إلى ساحة باب الرملة، أهازيج وبيارق وجند كثيف انتشروا بجنبات المكان، ثم ظهر رهبان ديوان التفتيش بأزيائهم المميزة وأغطية رؤسهم المخروطية، يتقدمهم حامل الصليب ومن خلفهم موكب الخطاة المكبلين بالسلاسل الحديدية، وعربة يجرها العبيد وعلى متنها قفص استقر بداخله شخص ما، تمنى في قرارة نفسه ألا يكون صاحبه الذي لم يره منذ أيام، لم يكن جُرحه بالسيء ولكن حظهم كان أسوء، فصلوه عن سانشو بعد أن عرفهم بنفسه، وعاملوه معاملة جيدة حين طلب

مقابلة دون خوان، ورغم الشكوك التي أحاطت به استطاع دي لافيجا مقابلة أخ الملك الذي استمع له جيدا واكتفى بسحب الأوسمة منه وعزله عن منصبه حتى ينظر في أمره، ولما سأله عن مصير سانشو اكتفى دون خوان بابتسامة لم يفهم دي لافيجا معناها... والآن يسير إلى ساحة الرملة تحت الحراسة المشددة دون ان يعرف ما سيحدث له.

التف الناس حول الساحة واتخذ كل منهم مكان مناسبا لرؤية الحدث الكبير، بينما قاده الجند إلى أعلى المنصة الملكية المنصوبة على حافة الساحة، وجوه كثيرة يعرفها ترمقه باشمئزاز بينما دعاه أحد الجند باحترام بالغ مشيرا له على كرسيه في الزاوية الأخيرة من المنصة، لن يُعدم إذن وإنما جاؤوا به ليشهد شيئا ما... ارتقى الدرج ووساوس عدة تجول برأسه حتى سَمع صوت يحدثه:

- دون دي لافيجا... كنت أحسب أن أمرك انتهى.

التفت لمحدثه وابتسم لرؤيته، كان الدون دي مندخار حاكم غرناطة الذي اقترب مصافحا إياه وأردف بأسى:

- سعيد لرؤيتك حيا مجددا..

- دون دي مندخار أنا الأسعد برؤيتك.

- قل لي كيف أقنعت دون خوان بأن لا صلة لك بتهريب

الأسرى.. لقد ارتفعت الأصوات داخل قاعة الحمراء بإعدامك ولكن يبدو أن للملك رأيا آخر.

- جميعنا سنموت بشكل أو آخر.. ولكن بطرق مختلفة والأهم من الموت هو اختيار الطريقة المناسبة لذلك.

- نعم صدقت.. ولكن هؤلاء الأسرى سيؤوا الحظ لم يختاروا ميتتهم.

- بل فعلوا.. حين ثاروا واقحموا أنفسهم في تلك الحرب كانوا يعرفون النهاية جيدا.

- أتدري يا إنكا.. هكذا تحب أن ينادوك صحيح.. أنا حزين لما يحدث بغرناطة وجبال البشرات.. حاولت جاهدا إقناع دون خوان بعد تهجير الموريسكيين من غرناطة ولكن الأمر فشل.. كما أن الملك لا يريد التفاوض مع المتمردين... ستصادر الديار والممتلكات بأمر من الملك ولن يبقى في غرناطة موريسكي إلا من حَسن دينه ولم يشارك بتلك الثورة المزعومة.

كان الإنكا يستمع لحديث دي مندخار حتى ارتفعت الأبواق لتعلن عن قدوم صاحب السمو والفخامة الأمير غير الشقيق للملك دون خوان... بدأت البيارق والرايات ذات اللونين الأحمر والأصفر في البروز مِن مفترق الطريق

يتقدَّمها حاملوا الطبول بملابسهم الضيقة وقبعاتهم ذات الريش الأسود ومن خلفهم كان دون خوان يمتطي جوادًا أسود اللون ضخم البنية، وسط تهليل العامة ترجل الأمير وصعد إلى المنصة، اكتفى بنظرة خاوية لدي لافيجا القابع في الزاوية وحيدا.. وسرعان ما امتلأت المقاعد بالنبلاء والفرسان القشتاليين... ثم دخل موكب الأسرى المكبلين إلى الساحة، وبعد أن ثبتوا إلى منصات الحرق وقف القس ريكاردو على رؤوس الأشهاد وبدأ خطبته:

- باسم الرب.. وباسم ملكنا المبجل فيليب الثاني حفيد القديسين فرناندو وإيزابيلا وحامي ملكوت الرب على هذه الأرض الطاهرة.. سنبدأ مراسم التطهير لأولئك الذين قتلوا ونهبوا وارتدوا عن ديننا.. أغواهم الشيطان وعادوا لمعتقداتهم وهرطقاتهم الشاذة.. بل وزادوا عن ذلك بأنهم تمردوا على التاج وعلى تعاليم المسيح.. ولكننا هنا في غرناطة رمانة جنة الرب.. سنعاقبهم وسنقاتلهم بل وسنطاردهم إلى آخر مرتد منهم.. وسيشهد التاريخ على نصرنا ورفعة قومنا وكيف أن إسبانيا استطاعت بعد قرون استرداد ما سُلب منها والآن حان وقت التطهير..

كان يتحدث والعربة ذات البغلين تدلف إلى الساحة، والقفص على متنها يحوي سانشو.. كان مبتسمًا في وجه

دون خوان الذي التفت لرؤية وجه الإنكا الممتقع، كان غاضبا وعيناه مثبتتان على صاحبه الذي جذبوه وانهالوا عليه ضربا حتى صعد إلى منصة الحرق، كُبل بجنزير غليظ إلى عمود خشبي وصوت ريكاردو يصدح:

- ها هو أحد قادة المهرطقين القتلة.. ويدعى سانشو بن طاهر الأشبوني، جاء إلى أرض قشتالة للنيل من أبنائها وجندها.. انضم إلى المتمردين ومن قبل ذلك كان قاطع طريق بإشبيلية... إن تاريخ هذا المجرم حافل بالدماء والقتل... لذا حُكم عليه بالمثل... سانشو الأشبوني أنت متهمٌ بالهرطقة وتخريب الممتلكات والدخول إلى أراضي مملكة قشتالة دون إذنٍ، وقطع الطريق وإثارة الرعب بين سكان مملكة غرناطة و...

قاطعه سانشو قائلاً بصوتٍ قويٍّ سمعه كلّ الحضور:

- كاذبٌ.

ساد الصمت والوجوم، فلم تَعُدْ تسمع إلا همسًا بينما أكمل سانشو:

- لستُ مهرطقًا ولم أخرِّب ممتلكاتٍ كانت يومًا لأجدادي، أنتم من خرَّبتم مساجدنا وحوَّلتموها إلى كنائسَ كما أنني لا أحتاج إلى إذنٍ لأدخل إلى أرض أجدادي وبلاد آبائي، حدود

ممالكِكُم زائفةٌ يا هذا، حدودكم تراب تذروه رياح ثورتنا وقريبا سيكون سلطاننا مبسوطا على غرناطة كسابق عهدها وليس غرناطة فقط بل كل الأندلس.

صاح ريكاردو بحنقٍ:

- اصمت أيها الكافر.

صاح سانشو بالمقابل في وجه ريكاردو القبيح:

- هل تظنون أنكم بحرقِنا وقتلنا تمحون آثارنا؟ فوالله ستبقى قصصنا وآثارنا شاهدةً على عظمتنا وأمجادنا، سنبقى رغم أنوفكم وستبقى ديارنا تلك التي سلبتموها كما هي حتى نرث الأرض من جديد.. وليشهد جُل من حضر مراسم موتي أني أنا سانشو بن طاهر الأشبوني كافر بما تفعلوه وبريء مما تقترفه أيديكم باسم الرب.

في تلك اللحظة، أشار دون خوان بيده، ليبدأ الجلاد في إشعال النيران أسفل كومة الأخشاب تحت أقدام الأسرى.. وسانشو يتمتم بكلمات بالعربية لم يفهمها دي لافيجا الذي انسابت دموعه وسانشو يقول بالقشتالية:

- المجد لنا ما بقي على هذه الدنيا بشر... وما مت إلا في سبيل الحق يا قشتالة.

ارتفعت ألسنة اللهب وبين الحضور رآها.. كانت ريتا تقف حاملة على كتفها طفلا صغيرا جذبت النيران انتباهه، ابتسم لها بينما كانت تبكي بحرقة ملوحة له.. وانهمرت دموعه فرحا لرؤيتها مجددا تحمل ابنه.. وابتلعته النيران وسط صخب صرخات الأسرى المجاورين له وصيحات الفرح من العامة.

